روايات مصرية للجيب

11

يوم ثارت الوحوش

سافاري

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافريَة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

١ ـ حادث مؤسف ..

كانت تعرف ما ينبغى عمله ..

الليل يرخى عباءته السوداء الثقيلة فوق الغابة الإفريقية ، وصوت وحش يزأر فى موضع ما ، فيرد عليه وحش أكثر وهنًا أو أكثر شراسة ، ربما يزأر على سبيل التهديد الأجوف أو التهديد الحقيقى القادر .

وعند النهر تحتشد الوعول وعشائر الجاموس البرى تطفئ ظمأها الذى ألهبته حرارة الجو ، لكنها لا تهاب الوحوش هذه الليلة بالذات ..

كانت تعرف ما ينبغى عمله ..

لم تكن هناك لغة ذات أحرف .. لكن تبقى تلك اللغة السرمدية التى تعلمتها منذ الخليقة .. لغة النظرات والرائحة والغرائز ..

كانت تعرف ما ينبغى عمله .

وكانت تتحرك فى كيان واحد ، له ألف قدم وألف

عين ، لكن له رأسًا واحدًا يريد ويقرر .. هذا هو التفاهم المطلق الذى حلم به العشاق منذ وجد العشق ، لكنهم لم يحيوه قط ..

كانت تعرف ما ينبغى عمله .

ومجال إبصارها الذى يدنو من الثلاثمائة والستين درجة يريها كل التفاصيل من حولها .. مجال الإبصار الذى يميز كل حيوان تكاثر خصومه الطبيعيين ..

إن الأسود والنمور والذئاب لا ترى إلا بؤرة محددة فى مجال إبصارها .. لماذا ؟ لأنها لا تتوقع هجومًا مباغتًا من أية جهة كانت ..

أما هذه .. فكانت تتوقع وتنتظر وتتوجس خيفة ..

لكنها كانت تعرف ما ينبغى عمله ..

هناك درجات مختلفة من الظلام .. ظلام الكهوف .. ظلام الأقبية .. ظلام الشوارع المظلمة .. لكن أعتى أنواع الظلام وأشرسها هو ظلام الدغل الإفريقى ، حيث يبدو أن الضوء اختراع لم يُوصف بعد ..

لم يُخترع بعد ..

وبرغم هذا كانت عيونها قادرة على أن ترى بدقة .. كانت تعرف ما ينبغى عمله .

★ ★ ★

وكانت المرأة قد فرغت من إعداد العشاء ..

قد عاد زوجها الصياد من الدغل ، ومعه بعض الحيوانات الصغيرة التى تمكن من اقتناصها ، وكانت هى قد أعدت (الكاسافا) المعجونة فى أطباقها الخزفية الصغيرة ..

الطفلة تعوى جوعًا ..

نهضت إليها وألقمتها ثديًا ، ثم راحت تجوب بها الكوخ الطينى جيئة وذهابًا حتى تهدأ قليلاً ..

اسمها (جوبارا) .. وعمرها خمسة عشر عامًا .. وهى أم منذ عام .. إن سن الخامسة عشرة هى سن متقدمة جدًا بالنسبة للزواج لدى (البانتو) .. ويمكن القول - دون خطأ كبير - إن الفتاة تصير عانسًا فى سن العشرين هنا ..

طفلة تحمل طفلة .. هذا هو كل شىء .. ومن الآن ينتهى عصر اللعب بالطين والسباحة فى النهير ، وتبدأ مسئوليات الأمومة المرهقة ..

لكنها - والحق يقال - تحب زوجها بحق .. إنه شجاع ماهر ولطيف المعشر ، خاصة حين يجلس أمام الكوخ فى ضوء القمر ويقص عليها أساطير الأسود التى تعلمها من جدته ..

كانت تهاب الأسود بحق .. ولكم تصورت المشهد التالى :

الأسد الذى يقتحم الكوخ عليها ، فيصرعها بضربة من كفه ثم يجرّها إلى الأحراش لينتهى منها ، بينما هى - لسوء الحظ - لم تمت بعد ومازالت واعية تدرك كل شىء !

هنا كان زوجها يغرق ضاحكًا من سذاجتها ، ويقول لها وهو يضرب بقبضتيه على صدره :

- « الأسود لا تهاجم الآدميين إلا فيما ندر .. ولو حاول أسد عجوز أن يفعلها دعيه يجرب حظه معى ! »

فكانت تغرق فى الضحك بدورها ..

حقًا كانت تتصورَ أن الأسود لا تجسر على مهاجمتها وزوجها فى الكوخ .. إنه أقوى من أى أسد وأى نمر وأى خرتيت ..

تسمع صوت أنفاسه الثقيلة ، ثم يملأ ظله فرجة الكوخ وعلى ظهره حمله .. رزق اليوم ..

يجلس القرفصاء أمام الكوخ ، ويفعم صدره العريض بهواء الليل الإفريقى العذب كأنما يغسله غسلاً .. ثم يمدّ ساقيه الملوثتين بالأوحال الجافة أمامه ، ويترنم بأغنية ما .. أغنية عن السحر الأسود الذى أوقعه فى غرام (مولانجا) حسناء القبيلة فلم يستطع فكاكًا .. أغنية حزينة مقاطعها طويلة جاءت من نياط قلب تمزق ..

هو لا يعلم وهى لا تعلم أن أجدادهما الزنوج حملوا معهم ألحانًا مماثلة إلى (أمريكا) ، وهى التى صار اسمها موسيقا (البلوز) أى (الأحزان) ..

تجلب له (الكاسافا) التى يفترسها افتراسًا بقبضة يده الغليظة ، ثم يتجشأ مرتين ويجرع الماء من الجرَة ..

بعد هذا .. غالب النعاس وتثاءب .. إن المعدة المليئة مع الإرهاق تلعب دور أقوى المخدرات المعروفة ، ولم يدر متى ولا كيف نام لكن رأسه سقط على صدره وتعالى صوت شخيره ..

ابتسمت للمشهد ، وعرفت أن هذا يوم جديد قد انتهى ، وغدًا يوم آخر .. حياة لا تتبدل وتيرتها ، لكنها كانت بها راضية ، لأنها لم تسمع عن حياة أخرى ، ولم تر التلفزيون فى حياتها بل لم تتصور وجوده ..

دخلت الكوخ لتمنح الطفلة رضعة أخيرة .. بعد هذا ستناديه لينهض مترنحًا ويفترش الفراش المصنوع من أوراق (المانجروف) ، ويغط فى نوم عميق بلا أحلام ، حتى توقظه هى صباحًا بعد ما تملأ الجرة من النهر القريب ، وتعد له إفطارًا متميزًا : عجين (الكاسافا) !

راحت الطفلة تقرقر وتصدر أصواتًا عديدة .. حقًّا لم تكن مهتمة بالرضاعة إلى هذا الحدّ ..

ما السبب يا ترى ؟

وأصاخت (جوبارا) السمع فلم تسمع سوى صوت الليل الإفريقى المعتاد .. الوحوش عند النهر ، والقردة تتشاجر فى مكان ما ..

ثم أصاخت أكثر ..

فأدركت أنها تسمع صوت حفيف .. صوت شىء صغير الحجم يعبث هناك عند سقف الكوخ المصنوع من سعف النخيل الجاف .. بالواقع ليس شيئًا واحدًا بل عدة أشياء ..

لهذا توترت الطفلة ..

للدقة أكثر نقول إن هذا لم يكن صوت حفيف فقط ، بل هو صوت قضم كذلك .. مئات الأفواه الصغيرة التى لا تكف عن قضم شىء ما ، وخيل للمرأة الشابة أنها سمعت صوت صرخة ..

هنا توترت أكثر .. وقررت أن توقظ زوجها ليرى ما هناك .. إنها مذعورة دومًا ، وتعرف جيدًا أنها لا تملك أية كفاءة ولا سرعة بديهة .. لهذا احتضنت الطفلة ، واتجهت إلى باب الكوخ ..

كان الظلام دامسًا لكنها وجدت زوجها حيث وجدته .. لكنه ..

لم يكن وحده .. ولم يكن نائمًا فى هذه المرة .. كان ميتًا ..

كيف عرفت أنه ميت فى الظلام ؟ هذا سهل .. من المستحيل أن يكون حيًا بعد ما تشوه جسده إلى هذا الحدّ ..

وحين دققت النظر أكثر رأت سبب موته ..

صرخت .. صرخت كثيرًا جدًا ..

كان هذا حين وثب الفأر الأول على رأسها ..

* * *





كيف عرفت أنه ميت فى الظلام ؟ هذا سهل .. من المستحيل أن يكون حيًا بعد ما تشوّه جسده إلى هذا الحدّ ..

٢ - (سافارى) من جديد ..

(برنادت) ليست هنا ..

تذكرون أنها قد انتدبت إلى (ياوندى) منذ فترة طويلة لتعمل مع رجال (باستير)[*] ، وقد كان هذا بعد عودتى من انتدابى المماثل مع (إبراهيم سامبا) لمكافحة عمى الأنهار .. لقد كانت تتحدث عن هذا الانتداب من زمن طويل ، وقبل أن يحتل المرتزقة وحدة (سافارى) .. أما الآن فقد تم الانتداب حقًا ، ومن الواضح أنها ستبقى هناك فترة لا بأس بها .. ربما يطول الأمر عامًا أو أكثر ..

للدقة العلمية أقول إننى مستريح لسفرها .. إن (برنادت) بؤرة صراع دائمة فى نفسى ، أشبه بالحجر الذى يلقيه طفل فى الماء الهادئ ، فما إن توشك الدوامة المتكونة على الانتهاء حتى يلقى بحجر آخر ..

(★) معهد باستير للبحوث الطبية الحيوية ومقره (ياوندى) .

دوامات لا تنتهى ، وشكوك .. وذبذبات فى روحى طيلة الوقت .. تارة أحلق فى سماء الثقة بالنفس ، وتارة يخنقنى الإحباط والتضاؤل .. تارة أرى المستقبل واضحًا جليًا باسمًا ، وتارة أراه مظلمًا عبثيًا خاليًا من أية بهجة ..

لو تزوجنا لاستقررنا هنا للأبد .. ولغدت (سافارى) جنتنا الموعودة ، ولربما عدنا إلى (مصر) يومًا ما مع .. مع .. مع ... للأسف لا أجد اسمًا ينسجم مع (علاء) كى أمنحه لابنى .. ولرَبما عدنا إلى (كندا) لأضع عينى فى عين أبيها ثقيل الظل ، وأقول له : أردت أم لم ترد أنا زوج ابنتك وأنت (عمى) ..

أقول إننى أشعر بالبهجة للخلاص من (برنادت) بكل ما تمثله من توتر وعذاب لى .. والآن يمكننى مواصلة حياتى ..

★ ★ ★

(برنادت) ليست هنا ..

لكن عندى (بسام) و(شيلبى) و(بارتلييه) و(جيديون) وذلك الأحمق (ليفى) الذى تغدو الحياة مستحيلة إن لم أكرهه وأضايقه ..

وقد توطدت علاقتى كثيرًا جدًا بـ (آرثر شيلبى) فى الفترة الأخيرة .. فهو مفيد جدًا يقطر علمًا ، لكنى أعرف دائمًا أنه مؤذ وخبيث مما يجعل علاقتى به نوعًا من مصارعة الديكة ..

وفى الأسبوع الماضى بالذات جاءنا طبيب شاب عربى آخر .. إنه يمنى يُدعى (أحمد عدنان) ، وهو يشبهنى إلى حدَ ما بلحيته الصغيرة المحيطة بالفم ، إلا أنه أكثر سمرة ونحولاً .. يبدو أننا بصدد تكوين جامعة دول عربية صغيرة هاهنا ..

ومن جديد أشعر أن لفظة (عروبة) لفظة حقيقية ليس مكانها كتب التربية القومية فحسب .. كلنا نملك التاريخ ذاته واللغة ذاتها والأحلام ذاتها ، ونسمع ذات الأغانى ونحب ذات الأطعمة .. فما هى المشكلة إذن ؟

★ ★ ★

والبداية الحقيقية لهذه القصة كانت فى ذلك اليوم .. كنت أمشى فى الردهة أمام قسم الجراحة الذى فجرت مدخله يومًا ما ! إن آثار انفجارعدة أنابيب (أوكسجين) ليست بالشىء الذى يزول بسهولة كما تعلمون ..

هنا وجدت (سباترانى) أستاذ الجراحة الإيطالى يمرّ بجوارى ، ثم اعتصر كتفى بيده الشبيهة بيد الديناصور - لو كانت للديناصور يد - وقال بصوته الجهورى :

- « هلم يا صبى ! أنا بحاجة إليك هنا .. لقد عجزنا عن العثور على ذلك الدنماركى - نسيت اسمه - وهناك جراحة عاجلة الآن .. »

طبعًا كنت شديد اللهفة لقبول عرضه .. إن هذه الفرص نادرة طبعًا ولا بد من أن تكون مخبولاً كى تفوتها ..

لحقت به بالداخل ، وبدأت إجراءات التعقيم المعهودة فى (سافارى) وهى إجراءات أحفظها عن ظهر قلب ، لكن عجلة الرجل وصراخه المستمرّ يجعلانك ترتبك كأنك لم تفعل هذا من قبل .

- « هيه ! ألم تنته بعد ؟ يا لك من طفل ! لقد فرغت من الجراحة تقريبًا !

أشم رائحة مريولة الجراحة الخارجة من التعقيم ، ورائحة المطاط المبطن بالبودرة من القفاز ، وأشعر بالقوة وبقدرتى على تحدّى الموت ذاته .. هذا أنا فى كل مرة أرتدى فيها ثياب الجراحة ورائحة القناع على أنفى ، والدفء الواهن الذى تشعه الثياب فى صدرى .. كل هذا ساحر .. ساحر إلى حدّ لا يوصف ..

حتى أناملى تكتسب - فى القفاز المسحور - سرعة وبراعة لم أعهدهما قط .. كأنما أنا فى قصة خيالية : الفتى العادى الذى يكتسب قوة خارقة ما إن يرتدى ثياب الأبطال ..

لكن الإيطالى الطاغية لا يترك لى فرصة الحلم هذه ..

الضحية الراقدة على الفراش هى رجل أسود ممزق الجسد إلى حد لا يمكن وصفه .. طبيب التخدير يضخ عشرات اللترات من البلازما والدم والدكستروز ومحلول (رنجر) ، محاولاً منع البائس من الانزلاق إلى الهاوية التى لم يعد منها أحد ..

وبسرعة البرق يعمل (سباتزانى) .. يربط الشرايين الممزقة .. يشفط الدماء التى تجمعت حول الرئة .. القلب واهن .. يحقنه بالإبينفرين ثم يشقّ الضلوع ذاتها ، ويعتصره محاولاً جعله يخفق ..

طبيب التخدير اليابانى لا يكفّ عن السباب بلغته .. أرى مئات النقوش المرسومة بالحبر الشينى تخرج من فمه ..

الآن يستأصل (سباتزانى) الطحال المتهتك .. العرق يغمر وجهه ، فتمدّ الممرضة يدها لتجففه .. لكنه يضرب يدها فى عصبية ، ويواصل العمل ..

أخيرًا يهمس اليابانى ، وهو يتراجع خطوتين للوراء :

ـ « لا داعى للاستمرار يا بروفسور .. »

يرفع الإيطالى وجهه المبلّل بالعرق ، ويرخى كمامته قليلاً كى يستعيد التنفس ، ثم يتراجع إلى الوراء .. لقد فهم .

لقد وقف الموت عند رأس فراش المريض ، فلم نجد الوقت الكافى كى نقوم بتدويره .. الأسطورة المجرية تتكرّر من جديد ..

خرجت معه من غرفة الجراحة وانتظرت حتى فرغ من نزع ثياب التعقيم ، ثم سألته فى كياسة :

ـ « ما كان سبب هذه الإصابات ؟ »

ـ « الضباع ! هجوم من الضباع فى قرية قرب النهر .. »

ـ « فهمت .. »

لكنى لم أفهم البتة ..

ليست الضباع معتادة الهجوم بهذه الجرأة وهذه الشراسة ، خاصة حين تكون الضحية فى قرية وليست منفردة ..

ثمة شىء غريب فى هذه القصة ..

سألته وأنا أنزع ثياب الجراحة بدورى :

ـ « هل رأيت سلوكًا مماثلاً من الضباع من قبل ؟ »

هزّ عنقه الغليظ فى ملل ، وهتف كعادة الإيطاليين :

ـ « مام ماميًا ! أنت فى (إفريقيا) يا بنىّ .. واليوم الذى تكف فيه عن رؤية الغرائب هو يوم وفاتك .. هاهاهاه ! »

وطوح رأسه للوراء وذقنه للأمام ، بينما ضحكته المعدنية تزلزل رهبتى المعتادة نحوه .. ثم غادر المكان وقد نسى كل شىء ..

وأنا أيضًا نسيت ..

* * *

حتى الظهيرة .....

هذه المرة كانت هناك فوضى عامة .. طائرة الهليوكوبتر الخاصة بوحدة (سافارى) هبطت لتقىء حمولتها التى تتلخص فى الجراح والألم ، ثم أقلعت لتأتى بالمزيد ..

ماذا حدث ؟ الأسود هاجمت قرية قريبة ومزقت سكانها .. هذه الأشياء تحدث كما تعلم ..

ومنذ متى تقتحم الأسود القرى ؟ القصة المعتادة هى الأسد العجوز الذى يصير عاجزًا عن مطاردة الفرائس السريعة القوية .. بعد تجارب عدة يتوصل إلى فريسة ناعمة بطيئة الحركة وسهلة القنص هى الإنسان عندها تختفى امرأة من حين لآخر ، أو ينقص قطيع النعاج

نعجة ، أو لا تجد الأم رضيعها فى مهده .. ثم يأتى صياد ما شرس ملتح كى يقتل الأسد ويعود بجثته ويتقاضى الحلوان من الحكومة ..

القصة هكذا دائمًا .. لكن من سمع عن سلوك عدوانى منظم للأسود القوية الفتية ؟

لا أحد يسأل أسئلة كهذه فى (سافارى) إلا من لا عمل له ، وأنا لم يكن لى دور كبير الآن ، لأن الجراحين كلهم جاءوا وراحوا ينظفون الجروح ويستأصلون ما يحتاج إلى الاستئصال ..

حين ترى شكل الجروح تدرك مبلغ القوة الجامحة الكاسرة فى الأسد .. هذا الحيوان الذى يبدو بريئًا بائسًا حين تراه فى حديقة الحيوان ، ولربما يزأر مرتين كى يظفر حارسه بربع جنيه ..

مات أربعة من الجرحى برغم الجهود المضنية ، وعرفنا أن فصيلة من الجيش الكاميرونى اتجهت إلى القرية لقتل الوحوش .. هذه خسارة فادحة ، فلا بد أنهم يستعملون طلقات مخدرة أو شيئًا من هذا القبيل .. لم

يعد قتل أسد حقًا مباحًا للإنسان كما كان فى الماضى .. إن حياة هذه الوحوش ثمينة جدًا ..

وعادت الحياة فى (سافارى) إلى وتيرتها المعتادة : (ملاريا) ثم المزيد من (الملاريا) .. ولا بأس ببعض الإيدز والجذام ..

ثم حدثت واقعة الثعابين ..

* * *

هل كان هذا يوم جمعة ؟

الحقيقة لا أذكر بالضبط .. ربما كان أو لم يكن .. إن يوم الجمعة هنا يوم عادى جدًا بلا رائحة بخور ولا الطقوس المعتادة ، من استعداد لصلاة الجمعة .. أداء صلاة الجمعة .. ما بعد صلاة الجمعة ..

حدث فى ذلك اليوم أن دوّى صراخ فى القبو .. الطابق الأرضى من (سافارى) حيث يتوارى العمال متظاهرين بالحماس بينما هم يدخنون سرًا .. وكان العامل الكاميرونى (جورج) قد نزل - كما يزعم - كى يتفقد الغلايات ..

فجأة خطر له أن الظلام الدامس يحوى أشياء غريبة بعض الشىء .. هناك صوت فحيح وأمام عينيه تتحرك أجسام معينة متدلية من مواسير السقف ..

أشعل عود ثقاب ليفهم لا ليدخن - هكذا قال - وعلى ضوئه رأى أفظع كوابيسه قد تحقق ..

يقول (جورج) إنه رأى نحو مائة ثعبان .. تتخذ تلك الأوضاع الشائقة التى تحبها الثعابين .. بعضها يلتف حول ماسورة السقف وبعضها على الأرض يرفع رأسه نحو القادم الجديد ، والبعض يقرر بالفعل أن الوقت قد حان للوثب ..

كانت هناك أصلة هائلة الحجم ترقد على الأرض المتسخة وتزحف زحفها البطىء الشرير الذى يقنعك لثانية بأنها ميتة .. وكانت تتحرك نحو مصدر الضوء ..

وتلوى ثعبان فوق خطاف معدنى صدئ ، وصوّب وجهه المريع فى وجه (جورج) ، وأطلق فحيحًا غاضبًا ينذر بالويل ..

أسرة لطيفة من الثعابين تمقت التدخل فى شئونها الخاصة .. إنهم متحفظون أكثر من اللازم ..

ولم يكن (جورج) من بلهاء المدينة الذين يملئون الدنيا صراخًا لدى رؤية ثعبان ؛ لكنه أطلق صراخًا كفيلاً بإيقاظ الموتى لأنه لم ير مشهدًا كهذا قط ولم يتصوّره ..

وقد جعله الذعر ينسى ـ لحظيًا ـ مكان المخرج ..

وفى هذه اللحظة بالذات التفت الأصلة حول ساقيه ، وقررت البدء بعملية العصر ..

★ ★ ★

٣ ـ عقاب (ربما نسر) ..

كلا .. لم يمت (جورج) طبعًا ، وإلا لجهلنا كل هذه التفاصيل ..

لقد نجحت صرخته فى جعل رجال الأمن يسابقون الرياح إلى الطابق الأرضى ، حيث وجدوا مشهدًا يصعب تصديقه ، وسرعان ما جرّد اثنان مسدسيهما وأفرغا الرصاص فى رأس الثعبان الضخم الذى لم يرد التخلى عن فريسته بسهولة ..

(صار رجال الأمن فى (سافارى) يحملون مسدسات محشوة ، بعد ما كان فى قصة الفصيلة .. ولا أرى هذا قرارًا أهوج) ..

وساعدوا الرجل على النهوض ، ونظروا حولهم عاجزين عن تصديق كل هذا الهول .. متى وكيف جاءت كل هذه الزواحف ؟

أطلق أحدهم النار عدة مرات فسقط ثعبانان أو ثلاثة ،

لكن بدا للجميع أن قتل الثعابين بهذه الطريقة يشبه دعابة دواء قتل البراغيث المكون من قطعتى خشب (أ) و (ب) .. وعلى المستهلك أن يضع البرغوث على القطعة (أ) ثم يضربه بالقطعة (ب) !

- « فلندخر طلقاتنا .. »

- « يجب أن يعرف المستر (باركر) تفاصيل ما حدث .. »

وتراجعوا للوراء وهم يسلطون كشافاتهم فى كل صوب .. تراجعوا بظهورهم ، وقد بلغ توترهم أقصى مدى له ..

كانت المشكلة أن الثعابين خطرة ، لكن (باركر) أخطر منها ..

* * *

حقًا كانت غضبة (باركر) لا تبقى ولا تذر ..

- « مجموعة من المهملين ناقصى العقول ! هذا هو أنتم ! »

وارتجفت يداه وهو يحاول التماسك :

- « أكبر مركز طبى فى غرب (إفريقيا) قد صار مأوى للثعابين .. لسوف يسعد المدير حين يعرف هذا ! »

والحقيقة هى أن (باركر) - نائب المدير - كان بالنسبة لهؤلاء هو المدير الوحيد .. فهو قاس لا يكف عن الصراخ والفصل وتوقيع العقوبات ، وكان يملك كل صلاحيات المدير لكن يتميز عنه باللسان السليط ..

الحق أن (بارتلييه) كان مديرًا طيب القلب ..

وراح القوم يختلقون الأعذار ، واتصل مسئول النظافة بإحدى شركات التطهير فى (ياوندى) ، فوعدتْ بإرسال بعض الرجال يقومون برشّ القبو بمادة السيانيد ..

- « ثعبان أصَلَة فى (سافارى) ؟! مجموعة حمقى هى أنتم ! »

ولم يتم إبلاغ (بارتلييه) ، لكن تمت مجازاة عدد لا بأس به من العاملين .. وبعد يومين جاء رجال التطهير - يرتدون ثيابًا هى أدنى إلى ثياب رواد الفضاء - ونزلوا إلى القبو ليفرغوا خزاناتهم الملأى بالهيدروسيانيك القادر على قتل جيش (هانيبال) ذاته .. »

ـ « أفاع فى القبو ؟ تبًا لإهمالكم يا حفنةً من البراغيث ! »

الحقيقة هى أن مستر (باركر) كان يبالغ قليلاً ، لأن امتلاء القبو بعدد من الثعابين ليدل على الغرابة أكثر منه على إهمال العاملين هنا .. ولم أكن موجودًا عندما أخرج رجال التطهير جثث الثعابين ، لكن قيل لى أن المائة كان عددًا أقرب إلى الصواب ..

وعبثًا أكد مسئولو النظافة أن القبو كان خاليًا تمامًا منذ أسبوعين ولم يجدوا فيه فأرًا واحدًا ..

صاح (باركر) كالرعد :

ـ « طبعًا ! لأن الثعابين التهمت الفئران كلها ! »

الحق أن الكلام مع هذا الرجل كان عسيرًا بعض الشىء ، وانتهت المشكلة على كل حال دون أضرار جسيمة ..

فقط لتقع حادثة النسر ..

★ ★ ★

أنسر أم عقاب ؟

الحقيقة هى أننى لست خبيرًا فى طرازات الطيور الجارحة .. كلها عظيمة المظهر مهيبة ، صارمة لا يبدو عليها الاستعداد للمزاح ، ومن الطبيعى جدًا أن تكون هى الشعار الرسمى لأكثر الدول .. إن لها ذات المذاق الصارم المهيب للحكومة ..

كنت واقفًا فى حديقة (سافارى) أثرثر مع (بيير) طبيب العناية المركزة ، وهى من اللحظات النادرة التى يمكن أن تراه فيها فى ضوء النهار وتحت السماء مباشرة ..

لم تكن مناقشة مهمة .. كان يحاول إقناعى بأن (كلود ليلوش) المخرج ليس نصابًا يهوديًا يبيع الترام لجمهور السينما ، وكنت مصرًا على رأيى حتى راح يردّد فى سأم :

ـ « لا جدوى من الجدال معك .. لا جدوى .. »

هنا حدث شىء غريب استغرقتُ ثانيتين لأستوعبه ..

نسر ـ أو عقاب ـ هبط من السماء لينشب مخالبه فى رأس (بيير) وفوجئت بأن رأس (بيير) تحولت



سقط (بيير) على ركبتيه وهو يصرخ ، ويلوح بذراعيه محاولاً انتزاع كتلة الريش الشرسة المتشبّثة برأسه ..

إلى كتلة من الريش ترفرف بجناحين عملاقين ، كما كان الرسامون يتخيلون أرواح مقاتلى (الفايكنج) .. كدت أبدى انبهارى بقدرته السحرية على التحول ، ثم فطنت للحقيقة ، وفطنت إلى أن النسر ـ أو العقاب ـ يعمل مخالبه فى رأس الطبيب بنشاط خلاب ..

تذكّرت صاحب سيدنا (يوسف) فى السجن ، حين رأى فيما يرى النائم الطير تأكل من رأسه ، وللحظة لم أدر ما ينبغى عمله ..

سقط (بيير) على ركبتيه وهو يصرخ ، ويلوح بذراعيه محاولاً انتزاع كتلة الريش الشرسة المتشبثة برأسه ..

هنا مددت يدى وانتزعت الطائر الشرس ، وألقيته على الأرض تحت ثقلى .. كان قويًا بحق .. وشعرت بخناجره تهتك لحم ذراعىَ وهو يطلق صراخًا مخيفًا كصراخ العنقاء لو كان لها صوت ..

ـ « (بيير) يا أحمق ! ساعدنى ! »

كان مذهولاً يدارى وجهه بعينيه فلم يستجب ..

ـ « هلم يا أحمق ! إنه أقوى منى ! إنه ! »

يا لضخامته ! لم أتصورّ هذا إلا وهو يجثم تحتى، وكل عضلاته تحاول تمزيقى .. مستحيل أن أتمكن من .....

فى اللحظة التالية وصل عملاق زنجى ـ ممرض ـ إذ رأى المشهد ، ومدَ يده من تحت جسدى وراح يعتصر ويعتصر .. حتى .. كليك ! سمعنا صوت شىء يتهشم .. لم يكن هذا عنقى بالتأكيد ..

أخيرًا رقدنا على الأرض لاهثين ..

عملاق زنجى .. وطبيب مصرى ملتح .. وجثة نسر .. وطبيب عناية مركزة تشوّه وجهه ..

إن (سافارى) ترى وجوهًا غريبة نوعًا هذه الأيام !

* * *

وعكف أطباء الجراحة على فحص جراح وجه (بيير) .. كانت أكثر بشاعة منها خطرة ، ولم يفقأ النسر عينه لأسباب لا أفهمها .. إن للنسور تصرفات محيرة أحيانًا ..

أما أنا فكان ساعدىَ فى حالة يرثى لها ، لكنى أحبَ الندوب على كل حال .. فهى تعطى انطباعًا بالرجولة الخشنة ..

ولم يستغرق الأمر كثيرًا حتى جاء (بارتلبيه) يهز كرشه العملاق ، ويلهث .. كان غاضبًا بشدّة وصبَ جام غضبه على رأسى .. لماذا ؟ لأنه لا بد أن يغضب من أحد ما ..

قال لى وهو يضغط على أسنانه :

ـ « هأنتذا ! لا بد من الصخب والفوضى حيثما وجدت ! »

قلت وأنا ألوّح بساعدىَ المضمدين :

ـ « بروفسور .. لو كنت لم تلحظ ذلك فأنا الضحية لا الجانى.. لقد كاد ذلك النسر ينتزع قلبى من الضلوع ..»

ـ « لا بد أنكما استفززتماه أكثر من اللازم .. »

ـ « لا أحد يستفز نسرًا مالم يكن معتوهًا .. »

ـ « وأنت معتوه ! النسور لا تنقض على الناس دون سبب .. »

- « سل هذا النسر .. ربما كانت لديه أسبابه .. »

بدا عليه التوتر ، وشرد ذهنه قليلاً .. ثم بلل شفته السفلى بلسانه وارتجف الشحم أسفل ذقنه :

- « ثمة شيء غريب يحدث .. شيء غير مفهوم .. »

ونظر لي ولـ (بيير) ثم انصرف دون كلمة أخرى ..

* * *

الحق أنني لم أدرك أبعاد المشكلة إلا متأخرًا ، لكن المدير كان في مركز يتيح له رؤية صورة أكثر شمولاً .. أنا أتحسس الذيل وغيري يتحسس الخرطوم .. فقط المدير يرى الفيل من بعيد وبكامل تفاصيله .. ولم يكن ما رآه مبهجًا ..

* * *

فرغ (بسام) صديقي التونسي من عمله في المعمل مع (هيلجا) التي لم تفترسه لحسن الحظ .. والغريب أن الطبيبة الألمانية الشمطاء كانت تجده ظريفًا يختلف كثيرًا عن مثيله المصري .. لا أدري سبب هذا ، وكان ما قلته له حين أخبرني بهذا ضاحكًا :

- « وإذا أتتك مذمتي من ناقص .. فهي الشهادة لي بأني كامل .. ثق أنني لا أتضايق من شتائم (هيلجا) ولا يسعدني مديحها .. حين يمتدحك الغول فعليك أن ترتجف رعبًا لا أن تتباهى .. »

المهم أن (بسام) أنهى عمله في المعمل ، وتمنى للمرأة ليلة سعيدة ثم خرج من الباب وتثاءب وتمطى .. إنها الثامنة مساءً والوقت لا يصلح للنوم .. يجب أن يظل ساهرًا ساعتين أخريين حتى لا يصحو في الثالثة صباحًا ..

إن قاعة التسلية في (سافاري) تصلح ؛ حيث يمكنه لعب الشطرنج ومشاهدة (الفيديو) قليلاً ..

هكذا مشى في الممر الطويل الخالي الذي يقود إلى الدرج .. وهذا الممر الطويل الخالي هو - ببساطة - ممر طويل خال .. لا شيء يميزه سوى بعض أنابيب إطفاء الحريق وجهازي هاتف .. و .....

- ولبوءة ثائرة تزأر ..

* * *

٤ - هل نحن مُحاصَرون ؟

لم يكن مشهد لبوءة تزأر من المشاهد المعتادة فى محافظة (المونَستير) حيث جاء (بسام) .. لنا - إذن - أن نتصور حاله .. الذهول الذى اعتراه ، وجعل جسده يتصلب والعرق يغمره ، وللحظة هوى قلبه إلى قدميه ..

تراجع إلى الوراء فى حذر ، ولم يركض .. هذا لحسن حظه ، وإن كان لم يتعمَده لأن تلك القطط الكبيرة تنوّم المرء مغناطيسيًا بعينيها اللتين تشعان نارًا ..

ببطء تتقدم نحوه وهى تزوم ، وعيناها لا تفارقان عينيه .. ذلك الصوت الحلقى المتحشرج المجسّم الذى يتردد حتى فى الأرض تحت قدميك .. وثبات وحش واثق من نفسه يعرف أنك لن تهرب ..

ببطء مماثل يتراجع (بسام) ، وقد أدرك بغريزة الفريسة أن الهرب جريًا أو الصراخ سيعجل بالنهاية المريرة ..

يده اليمنى تنبش فى الجدار بجواره .. هى ذى أدوات إطفاء الحريق .. الفأس .. كلا .. لا جدوى من استخدامه .. أنبوب الإطفاء .. هو ذا بلونه الأحمر المميز يتراءى خارج مجال إبصاره ، والآن يمسكه فيشعر بثقله المطمئن ..

بهدوء .. بهدوووووء ..

يقلب الأنبوب .. يضغط على الصمام ، و .... فششششش !

الرغوة البيضاء تنطلق لتغمر وجه الوحش الثائر .. يواصل الضغط بضع دقائق وهو يصرخ فى هذه المرة .. يصرخ فقد انزلق صمام أعصابه بدوره .. ثم يلقى الأنبوب فى اتجاه الوحش ويركض ..

لم ينظر للوراء .. لكنه كان يدرك أن اللبوءة تمسح الرغوة البيضاء عن وجهها ، وتستشيط غضبًا ..

باب المصعد فى نهاية الممر .. إنه مفتوح ! يا لحسن الطالع ! المهم أن ينغلق قبل أن .....

يضغط على أى زرّ كيفما اتفق .. ينغلق الباب ..

أراح (بسام) رأسه على جدار المصعد ، وأطلق زفرة عميقة من أعماق قلبه .. والحقيقة هى أن السيطرة على ساقيه كانت مستحيلة الآن .. (الأدرينالين) الذى تدفق فى دمه ينسحب تاركًا إنهاكًا وتفككًا فى الأعصاب لا يمكن وصفه ..

الآن ينفتح باب المصعد من جديد ، ويهمّ (بسام) بمغادرته ولكن .. كانت الفتحة كافية كى يرى الأسد الذى يمشى فى الردهة ، ويستدير ليرى مصدر هذا الصوت .. صوت باب المصعد ..

بسرعة ضغط (بسام) على زرّ آخر والذهول يتملكه ..

لقد احتلوا الوحدة ..

احتلوها !

وأين الآخرون ؟ أين الحمقى الآخرون ؟

* * *

وانفتح الباب فى الطابق الثالث ، وكانت أمامه ردهة خالية يمشى فيها رجلا أمن .. غادر المصعد جريًا وتشبث بثياب أحدهما ، وراح يقول كلامًا كثيرًا يمكن أن نتخيله ، كما يمكن أن نتخيل رد فعل الرجلين .. أسود فى (سافارى) ؟ لقد جُنّ هذا الطبيب حتمًا ..

وجد عسرًا فى جعلهما ينفعلان بانفعالاته ، فغادرهما وهرع إلى أقرب جهاز هاتف .. طلب مكتب المدير ، وبكلمات مبعثرة أخبره بما كان ، ولم تطل المكالمة لأن الثلاثة سمعوا زئيرًا مخيفًا ارتجت له البناية ، ثم دوّت ثلاث طلقات صاخبة ..

بعدها ساد الهرج والمرج ..

وجاء رجال الأمن جميعًا وانطلق الرصاص فى كل صوب .. ربّاه ! لقد تحوّل المكان إلى سيرك حقيقى ..

وفى النهاية عرفنا أن أسدًا وزوجته تسللا إلى وحدة (سافارى) .. ربما من إحدى نوافذ الطابق الأول المفتوحة ، وقد كانا يبحثان عن فريسة مناسبة حين التقت الأنثى بالأخ (بسام) ..

إن الأسد وأسرته حيوانـات كسالى بطبعها ، ومن المؤكد أن الأسد يقضى عشرين ساعة يوميًا راقدًا على العشب لا يعمل شيئًا .. لهذا نجد فى هذا التصرف الأخير شذوذًا غير مسبوق .. عدوانية لم نعتدها ، وجرأة غير عادية ..

وحين جاء (بارتلييه) من مكتبه ليرى جثتى الأسدين اللتين ملأتهما الطلقات ؛ لم يجد ما يقول .. لقد فاق الأمر الحدّ ..

طبعًا انهال بعبارات اللوم على رجال الأمن .. إن من يترك أسدين يدخلان إلى مستشفى لهو عبقرى قادر على عمل أى شىء آخر ..

ثم نظر لمن حوله ، وقال وهو يعود إلى مكتبه :

ـ « تخلصوا من هذين ، ثم ليلحق بى (باركر) فى مكتبى .. »

وتوقف لحظة وقد تذكّر شيئًا :

ـ « ليحضر كذلك الدكتور (عبد العظيم) وصديقه التونسى .. »

كان سبب استدعائنا معروفًا ولا يحتاج إلى ذكاء كثير .. الأمر واضح تمامًا ، وقد تكاثرت علامات الاستفهام ..

* * *

وفى مكتب المدير جلسنا متوترين نفرك أكفنا فى قلق .. ذلك الجو الموحى بحدث جلل يثير أعصابى بشدّة ..

صب (بارتلييه) بعض القهوة لنفسه فى كوب ورقى ، ثم لوّح بالترموس فى تساؤل بمعنى (هل يرغب أحدكم ؟) ، فمددت يدى إليه وصببت لنفسى بعض السائل الساخن عديم اللون والرائحة والطعم ..

راح يقلب الأوراق أمامه فى ضيق ، ثم قال :

ـ « هكذا ترون .. التقارير تتوالى عن تصرفات غير عادية للوحوش فى هذا القطاع من (الكاميرون) .. زحف جماعى للثعابين .. هجوم منظم للفئران على القرى ـ فئران تلتهم الناس ـ وسلوك عدوانى للضباع والأسود .. نحن هنا فى (سافارى) قد اصطدمنا مع

ثلاثة نماذج غير مسبوقة : الثعابين فى القبو ـ عقاب ينقض من السماء ليمزق رأس (ببير) ـ أسد وأنثاه يجولان فى طرقات الوحدة بحثًا عن عشاء .. لقد جن الجميع ! »

سأله (باركر) فى رهبة :

ـ « لا بد أن الأمر يتعلق بثقب (الأوزون) .. هل ثمة شىء مماثل يا سيدى ؟ »

ـ « حتى الآن لا نعرف .. لكننا قادرون على الاعتقاد بأن هذا الخبال لم يصب سوى الحيوانات .. لم أسمع قط أن لثقب (الأوزون) تأثيرات على السلوك الحيوانى .. ولو كان هذا صحيحًا لامتلأت (الكاميرون) بخبراء البيئة .. »

ثم حك ذقنه الشحيمة ، وقال :

ـ « اقتراحات ؟ »

فلما وجدنا صامتين كالأسماك ، قال فى ضيق :

ـ « لست قادرًا وحدى على اتخاذ قرار فى مشكلة لا أدرى سببها ولا أبعادها .. أتوقع اقتراحات جيدة خاصة منك يا (علاء) .. »

ابتلعت ما فى فمى شاعرًا بغصة ، وتساءلت :

ـ « لماذا أنا بالذات ؟ »

ـ « لأنك تهوى المشاكل .. فإن لم تجدها وجدتك هى ! »

قلت شارد الذهن وأنا أعتصر الكوب الورقى :

ـ « أعتقد أن المشكلة ليست مشكلتنا .. كل دورنا هو إبلاغ السلطات فى (ياوندى) ، والتأكد من أن قطعان الخراتيت ـ لو كانت تعيش فى قطعان ـ لن تقتحم البوابة .. »

ـ « أى مثل راعى (بوذا) : نغلق على أنفسنا ونردد : فلتزأر العاصفة ! »

ـ « هذا هو الصواب كما أراه .. »

سأل (باركر) بدوره عن رأيه ، فقال فى كياسة :

ـ « هذا هو الرأى الصائب .. يجب زيادة إجراءات الأمن إلى أن يتضح لنا كل شىء .. إن الخطر هناك فى الأحراش وجوار النهر ، لكنه لن يصل إلينا إلا من ثقوب فى جدار أمننا .. وأنا كفيل بسد هذه الثقوب لأن هذا عملى .. »

- « (بسام) ؟ »

قال صديقى التونسى بفرنسيته المتقنة :

- « لا بد أن (ياوندى) ملتهبة ، ولا بد أنها تعجَّ بالعلماء والخبراء الذين يحاولون تفسير هذه الظاهرة .. أعتقد أن المطلوب منا هو أن نظل أحياء سالمين .. لا أكثر ولا أقل .. يمكن أن نطلب بعض رجال الجيش كى يضمنوا لنا الحماية .. »

قال المدير وهو ينقب فى الأوراق :

- « هذا ما فعلته منذ يومين .. وقد ردّوا علىّ بهذا الفاكس .. »

ولوّح بورقة باهتة كئيبة ، وغمغم :

- « يقولون : احموا أنفسكم بأنفسكم .. قوات الجيش والشرطة منهمكة فى تنظيف القرى المحيطة بالعاصمة وتأمينها .. »

صفَرت بفمى غير مصدق :

- « فيوووووه ! هل المشكلة بهذا الحجم ؟ يريدون القول إن حربًا حقيقية هناك ؟! »

- « هذا هو ما فهمتَه مؤخرًا .. يا سادة يبدو لى أن المشكلة لن تنتهى عما قريب .. »

ساد الصمت الرهيب ، لم يقطعه سوى أنامل (باركر) تقرع خشب المكتب فى عصبية .. وفى النهاية سأل (بسام) السؤال الذى كنا جميعًا نريد أن نوجهه :

- « هل نحن محاصرون يا سيدى ؟ »

فأجاب (بارتلييه) الإجابة التى كنا نهاب سماعها :

- « من الدلائل التى أراها .. أعتقد هذا يا بنى ! »

* * *



٥ ـ صياد وتابعه ..

والآن أقدم لكم (ماكسيم إيزاريوفتش مينكوف) ..

لو كنت لم تخمن من الاسم أنه روسى فأنت فى مشكلة حقيقية .. إنه روسى من (جورجيا) .. ولربما أضعت عدة ساعات وصفحات فى وصفه لكننى سأختصر الأمر : إنه عملاق أصلع .. هكذا صارت صورته الذهنية واضحة لك ، ويمكنك أن تتوقع منه ما تتوقعه من أى عملاق أصلع ..

الأخ (ماكسيم إيزاريوفتش مينكوف) ـ (ميشكا) كما يدللونه ـ هو صياد مخضرم له باع طويل فى الصيد ، ويبدو أنه قضى طفولته يصطاد الدببة فى غابات (التايجا) ، ثم قرّر أن يجرّب حظه فى غرب (إفريقيا) ، وهو من هؤلاء الذين تستأجرهم الحكومات كى يقتلوا الوحوش التى تهاجم القرى من حين لآخر ..

بدأ الأمر بمكالمات طالت بين (بارتلييه) وأحد المكاتب الحكومية فى (أنجاوانديرى) ، وبعد يومين وصل إلى (سافارى) ذلك العملاق الروسى ، ومعه تابعه الأسود (كليوفوس) ..

ولقد ذكرنى مظهره على الفور بما كنا نراه فى القصص .. الصياد الأوربى الجسور وخلفه تابعه المذعور المرتجف ، الذى ترقص عيناه فى محجريهما كالقرد ..

تهامس الجميع لدى قدومه ، خاصة مع مظهره العجيب الذى لا يمرّ بسهولة .. ضخمًا مهيبًا أصلع يرتدى بذلة (سافارى) كاملة ، وعلى خصره مسدس لا بأس بحجمه أبدًا ..

وعرفنا أن المدير قد استدعاه من أجل تأمين وحدة (سافارى) ، ومراقبة نظم الأمن فيها .. إن الرجل لم يعد على استعداد لرؤية الوحش التالى الذى يتسلل إلى الوحدة ..

وعند الظهيرة استدعانا المدير جميعًا إلى قاعة الاجتماعات كى نستمع إلى محاضرة قصيرة يلقيها ضيفنا الخارق للعادة ..



وبعد يومين وصل إلى (سافارى) ذلك العملاق الروسىّ ، ومعه تابعه الأسود (كليوفوس) ..

وهكذا احتشد أفراد برج (بابل) المسمى بـ (سافارى) فى القاعة ، وهو كما تعرفون مشهد لا يتمّ إلا فى الأحداث الجُلَل .. كان الكل يثرثر بكل اللغات حتى وقف الأخ (ماكسيم إيزاربوفتش منكوف) بقامته الفارعة ، ورأسه الأصلع يلتمع فى ضوء الكشافات ، ولاحظت أنه يطوح رأسه للوراء ويفرد صدره للأمام لأنه يعرف أنه شبيه بـ (موسولينى) إلى حدّ ما .. رجل مفعم بوساوس الجبروت ومن الجلىّ أن يحتقرنا ويسخر منا فى سره باعتبارنا أقرب إلى الفتيات ..

ساد الصمت إلا من صوت عينيه القويتين إذ يتأملنا .. نعم .. كان لعينيه صوت .. صوت قوى بارد مؤثر ..

بعد قليل بدأ يتكلم .. وكان صوته غليظًا عميقًا يفرط فى الضغط على حروف الراء كعادة الروس ، لكنه كان يستعمل الفرنسية ..

تحدث عن الكارثة البيئية فقال :

ـ « نحن لا نعرف تفاصيل ما حدث .. لا نعرف سرّه .. وعلماء البيئة غير قادرين على تقديم إجابات ؛ لكننا واثقون من أننا نستطيع حماية أنفسنا .. سأقوم

بتعزيز أبواب الوحدة ، وتوزيع رجال الأمن على المخارج كلها .. سنكثف دوريات الحراسة ونتأكد من عدم حدوث تسلل إلى القبو .. هذا هو كل شىء وحتى تنتهى الأزمة .. »

« لا يجب أن نجزع ، ففى النهاية نحن نتعامل مع حيوانات عجماء غير قادرة على الإتيان بالمعجزات .. لقد حدث أكثر من هجوم بسبب الإهمال أو نسيان واجب الحذر .. لكننا فى النهاية أيضًا لا نواجه جيش عمليات خاصة أو فرقة (كوماندوز) .. والحيوانات هى الحيوانات .. لها حدودها ولها قواعدها .. »

وبعد هنيهة من صمت ثقيل تساءل :

ـ « هل من أسئلة معينة ؟ »

طبيب بلجيكى قصير القامة نهض ، وتكلم فلم أسمع سؤاله بسبب صوته الخفيض .. لكنى سمعت الإجابة على غرار الأحاديث الصحفية ذات الطرف الواحد :

ـ « استقبال الحالات يسير كما هو ، فلم يتغير شىء .. »

طبيبة إيرانية محجبة رفعت يدها طالبة الكلمة ، وسمعنا سؤالها :

ـ « هل يمكننا الذهاب إلى (أنجاوانديرى) أو مغادرة الوحدة ؟ »

قال الروسى دون أن ينظر فى اتجاهها :

ـ « لا أنصح بهذا .. أقترح أن نتعامل مع الأمر بفلسفة الحصار أو حظر التجوال .. »

وابتسمت فى سرِّى إذ تداعت لذهنى أغنيتنا الخالدة : (اللى عاوزنى يجى لى .. أنا ما بروحش لحدّ) .. لم أتصوّر يومًا أن تتحول إلى شعار (سافارى) غير المكتوب ..

رفع (أرثر شلبى) ـ بكسر الشين وتسكين اللام ـ يده ليسأل :

ـ « وماذا عن تأمين الأفراد هنا ؟ »

ـ « سنتأكد من غلق النوافذ جيدًا .. لا داعى للمغامرات غير المحسوبة أو لزوم ما لا يلزم .. لا أحد ينزل للقبو ..

لا أحد يصعد إلى السطح .. فليحرص كلّ على أن يكون فوق رأسه سقف دومًا .. »

من جديد ساد الصمت ، فقطب الرجل جبينه منتظرًا المزيد من الأسئلة السخيفة ، فلما لم يجد ابتسم ابتسامة صناعية ، وترك المنصة مع تابعه الذى عرفت أنه من (كينيا) ..

وتفرقنا دون نظام وثمة شعور عام لدينا بأن كل هذا غير حقيقى .. الوحوش قد قررت أن تخرق المعاهدة وتهاجم البشر حيث وجدوا .. سلوك بيولوجى غير مسبوق يسيل له لعاب العلماء ، هذا إن ظلوا أحياء أصلاً ..

ولم أدر مدى سلطة هذا المدعو (ميشكا) إلا فى اليوم التالى ..

* * *

فى اليوم التالى كان الأمر شبيهًا بعملية التنظيف التى تمارسها أمى يوم وقفة العيد ، حتى توقعت أن أجد المقاعد كلها مقلوبة مع تعليمات لى ولأخى بأن ننزل لنلعب فى الشارع طيلة اليوم .. حتى لا تتسخ الأرض الممسوحة بأحذيتنا ..

كان عمال (سافارى) ورجال الأمن ينقبون كل مكان ، ويتأكدون من غلق كل فتحة أو ثقب ، مع تدوين مكان هذه الفتحة فى قائمة طويلة يقدمونها للأخ (ميشكا) ..

وعند منتصف النهار أقلعت طائرة الهليوكوبتر الخاصة بـ (سافارى) حاملة الصياد الروسى وتابعه ، وقامت بعدة دورات حول الوحدة ، كما حلقت فوق الأحراش والقرى المجاورة ..

وحين هبطت أخيرًا كان الروسى مرهقًا ، وقد ابتلت صلعته بالعرق فراح يجففها بمنديل (محلاوى) عملاق ، وهو يحكى للمدير تفاصيل ما كان اليوم ..

فيما بعد عرفت ما قاله :

ـ « الوضع يزداد خطورة .. كنت أرى التماسيح وقد غادرت الأنهار فى قيظ الظهيرة ـ على خلاف عادتها ـ وراحت تزحف فى اليابسة بسرعة لا تصدق .. ورأيت حشودًا من الطيور الجارحة تحوم حولنا فلو لم تكن الطائرة تصدر هذه الضوضاء لانقضت علينا .. »

« إن أكثر القرى خالية فى هذا المربع .. الوطنيون يحملون متاعهم متجهين نحو الجنوب فى صفوف طويلة .. وقطعان الجاموس البرى تركض فى هياج غير مبالية بشىء .. »

« وبعينى رأسى رأيت قطعان الضباع تتحرش باللاجئين .. كان أكثر من مائة ضبع يحومون حول الفارين ، لا يبالون بالحجارة التى قذفت عليهم ، ولا المشاعل التى لوَحوا بها فى وجوههم ..

« رأيت ثلاثة ضباع تنقض على رجل قوى البنية فتوقعه أرضًا ، ثم تجره خارج الطابور ، بينما رفاقه يقذفونها بالحجارة واللعنات ، وحاولوا التشبث بالرجل لكن الضباع تكاثرت عليه وعليهم ، وفى النهاية فرَت الوحوش حاملة فريستها ، وما كان بوسع أحد أن يمنعها لو أراد ألا يلحق بالرجل ..

« كل شىء كان يفترس كل شىء ..

« إنه لمشهد رهيب مهيب ، كنهاية العالم أو جحيم (دانتى) حيث يترك الداخلون وراءهم كل أمل ..

« هذه الحيوانات لم تتصرف قط كأية حيوانات اصطدتها أو عرفتها أو رأيتها من قبل .. إنه الجنون التام ..

« ولدى عودتنا كان الأفق مزدحمًا بطيور لم نتبين كنهها ، ثم دنونا منها فعرفنا أنها وطاويط .. أسراب من الوطاويط لم أرها قط بهذه الكثافة ، ولم تكن تبذل مجهودًا يذكر للابتعاد عن الطائرة كأنما تلفت أجهزة الرادار الخاصة بها ..

« كانت تحوم حول القرى الخالية ، وأنا أعرف أنه ما من وطاويط مصاصة دماء فى (الكاميرون) ، لكنى أتساءل عن مصير إنسان يجد نفسه وسط هذه الثدييات البشعة ..

« لقد جن جنون الطبيعة يا سادة ، وعلينا أن نتحرك على هذا الأساس .. »

* * *

٦ ـ أمسية هادئة جداً ..

فرغت من عملى فى الثامنة مساءً فقررت أن أخرق حظر التجوال المفروض علينا وأخرج إلى الهواء قليلاً.. هنا يجب أن أقول إن الضعف الإنسانى الشهير سيطر علىّ : هذا لن يحدث لى .. تلك الأشياء تحدث للآخرين فقط ..

عبرت ممر الأشجار الموصل بين ضلعى حرف (L) اللاتينى الذى بنيت على طرازه وحدة (سافارى) .. كان مضاءً بمصابيح النيون الهادئة الباردة ، مع رائحة الليل الإفريقى المحببة الموحية بالسلام .. عندها أيقنت أننى لن أموت هذه الليلة على الأقل .. عسير أن يخرج أسد من هذا الظلام الآمن ليمزقنى إربًا ..

هنا وجدته ـ الروسى لا الأسد طبعًا ـ جالسًا على السور يدخن سيجارًا غليظًا خبيث الرائحة .. كان

يرتدى سترة خاكية اللون على اللحم ، وقد فتح أزرارها حتى أسفل صدره كاشفًا عن جسد عضلى يثير حسد أبطال الإغريق القدامى.. الحق أنه كان رجلاً قويًا ، وأنا أحمل فى داخلى انبهار الأطفال بالقوة .. هذا صياد شجاع أطلق النار على الأسود والخراتيت وظل حيًا .. هذا هو بابا (ميشكا) الذى سيبقينا أحياء حتى تنتهى الأزمة ..

ما إن رآنى حتى اكفهر وجهه وقال فى حزم :

ـ « ممنوع الخروج للعراء .. ظننت كلامى واضحًا ! »

قلت وأنا أجلس جواره على السور :

ـ « لا أحسب الخطر دانيًا إلى هذا الحدّ ، وإلا لبدأت بنفسك .. هل سمعت يومًا عن القدوة ؟ إننا فى العربية نقول : إذا كان ربّ البيت بالدف ضاربًا ، فشيمة أهل البيت كلهم الرقصُ .. وكما أرى أنت خرجت للعراء ..»

كاد يقول لى الإجابة المعهودة : أنا أعرف كيف أواجه الخطر أما أنت فلا ، ثم قرر أن الأمور فعلاً ليست بهذه الخطورة ، ولم يرد أن يبدو متشنجًا أبله .. لهذا صمت ولم يعلّق .. فقط ازدادت سرعة تدخينه وجرعات الدخان التى يبتلعها .. ثم بدأ يترنم بالروسية بأغنية ما ..

ظللنا نرمق الليل الصامت بضع دقائق .. ثم سألته في كياسة :

- « من أنت ؟ »

لم ينظر لي ، بل قال في ثبات :

- « أنا (ماكسيم إيزاريوفتش منكوف) .. »

- « يا سلام ! وأنا (علاء عبد العظيم) .. أعني من أنت حقًا ؟ »

ابتسم .. شقوق حفرها السيل في وجه قدّ من صخر ، وقال بصوته الغليظ الذي يعطي الراء أكثر من حقها :

- « لا شيء يُذكر .. نشأت في الاتحاد السوفييتي - عندما كان اسمه كذلك - وحين فرّ أبي فررت معه .. لم يتحمل قهر (ستالين) ، وبمعجزة استطاع أن يغادر البلاد مع أسرته .. عشنا فترة لا بأس بها في (النمسا) ، ثم قرّر أبي - الذي كان معلمًا - أن يجرب حظه في (إفريقيا) .. استقررنا في (تنزانيا) وهناك اكتشفت بحق أنني صياد بالفطرة .. لقد بدأت حياتي

بإطلاق الرصاص على دبّ في غابات (التايجا) ؛ لكني في (إفريقيا) عرفت المذاق الحقيقي لمتعة الصيد .. المخاطرة .. لذة أن تملك حياة الحيوان الذي في مجال تصويبك .. طلقة واحدة بكامل اختيارك فإما أن تتركه وإما أن يشطب من قائمة الأحياء .. أية قوة هذه وأية إرادة ! »

وارتجفت شفتاه من فرط النشوة ، وأردف :

- « ثمة عنصر آخر غير القوة الباهرة .. إنه عنصر المقامرة .. المخاطرة .. أن تتوغل في الأحراش غير عالم باللحظة التي سيجتازها الفهد كي يثب عليك ويخرج أحشاءك بمخلبه .. أن تتوقع رؤيته وراء كل غصن شجرة ، وخلف كل أجمة .. وعندها يتوقف مصيرك كله : حاضرك ومستقبلك على ضغطة زناد تجيء في الوقت المناسب لا قبل ولا بعد .. »

« وعندما تنجح تقف مرتجف الساقين ترمق الوحش الذي كفّ عن أن يكون كذلك ، وتشعر بأنك بحق سيد مصيرك ، وأنك استطعت قهر الموت حين جاءك يسعى .. »

« كل هذه النشوة الحارقة ، وبعد هذا كله تدفع لـك الحكومة مالاً ، وكان الأحرى أن تدفعه أنت ! »

ابتلعت ريقى ، وكتمت خواطرى .. هذا الأخ إذن لا يمارس مهنته لمجرد أنها مهنتـه ، بل هو يجـد فيها قمة اللـذة السـادية التدميرية .. بـدأ رأيى يتبـدل بعض الشىء ، وإعجابى به يذبل .. أن تقتل الحيوانـات بحكم الضرورة أمر يختلف عن أن تقتل الحيوانات لأنك تتلذذ بهـذا ..

سألته :

ـ « هل لك أسرة ؟ »

نفث الدخان الكثيف من صدره ، وقال :

ـ « أكثر من أسرة ! لكن طبعى الحادّ يأبى الاسـتقرار فى مكان ما .. إن هى إلا أيام ويبدأ نداء الدم فى عروقى ، وأشعر بالشوق إلى الأحراش ، وصوت الزئير ، ورائحـة البارود .. »

وكانت جواره (زمزميـة) مـاء صـغيرة ، فـانتزع غطـاءها وجرع جرعتين ثم سكب باقى المـاء علـى صدره ، وغمغم :

ـ « حرّ .. حرّ شديد ! »

ثم نهض وتمطى .. استطعت أن أرى حزامـه المدجج بالسلاح ، والخنجر الطويل المتدلى جـوار فخذه .. الحق أن (ميشكا) كان يتصرّف ويعمل كأى صياد محترف .. ربما إلى درجة المبالغة ..

وفى تثاقل ابتعد ، ولم ينس أن يقول دون أن يلتفت :

ـ « لا تمكث كثيرًا فى الخارج .. فمن يدرى ؟ »

وجلست وحدى على السور أرمق الليل ، وخطر لى أن هـذا كله غير حقيقى .. نـوع مـن المزاح السخيف .. كابوس متقن لا يمكن أن تشك فى كونه كذلك ..

لن تمزقنى الوحوش أبدًا ..

★ ★ ★

فى غرفتى أخيرًا ..

كان البساط متسخًا بفعل أقدام الغزاة .. لقد دخل الغرفـة وخرج منها الكثيرون فى أثنـاء عملية التفتيش الدقيقة التى قام بها الأخ (ميشكا) مع رجال أمن (سافارى) ..

أزلت الفضلات بالمكنسة .. لن أندهش لو كان هناك أسد ملتصق بحذاء أحدهم .. إن الناس لا تنظف أحذيتها أبدًا هذه الأيام ..

بعد هذا ـ ليطمئن قلبى ـ بحثت تحت الفراش ، وفى دورة المياه الملحقة عن أصلة أو (بوا) عاصرة تنتظر حتى أنام(*)، ثم بدأت أجرى طقوس المساء .. الحمام بالماء البارد .. تشغيل المروحة لطرد الأشباح .. إعداد كوب من الشاى الأسود الثقيل .. الشاى الذى تكفى رائحته وحدها لإنعاش المحتضرين ..

لقد جلبت معى من (مصر) مرطبانًا مليئًا بالشاى ، ومرطبانًا مليئًا بالسكر ، وكوبين ، وأداة تسخين كهربية شبيهة بالبراد .. وكانت هذه اللحظة هى أسعد لحظات حياتى ، والتى أنتظر نهاية اليوم من أجلها .. ولنفس الأسباب التى جعلت (بسام) يملأ حقائبه بزيت الزيتون ، وجعلت الأطباء الهنود يحضرون (الشوتا) الملفوفة فى ورق الشجر كى يمضغوها إلى أن يصابوا بسرطان الشفتين ..

(*) البوا لا توجد فى (إفريقيا) لو أردنا الدقة !

الوطن .. رائحته وطعامه وعاداته .. هذا هو السرّ ..

لكن سعادتى لم تدم ..

شىء ما جعلنى أختلس النظر إلى داخل البراد قبل أن أملأه بالماء ، وكانت حركة موفقة فى الواقع ..

فى البدء خيل لى أن صرصورًا عملاقًا قرر أن يبيت ليلته هناك ، ثم فطنت إلى أننى أعرف هذا الكائن .. لقد كنت فى الجيش ورأيت أمثاله فى الجبل كثيرًا ..

هذا عقرب ! عقرب لطيف الشكل مع صغاره يلهو داخل البرّاد الذى كنت سأشرب الشاى فيه بعد دقيقة !

لم يكن الاشمئزاز هو ما انتابنى بل الذعر .. الذعر من المدى الذى وصلت إليه الأمور .. هذا البراد كان نظيفًا أمس بالتأكيد وقد تأكدت من غسله ، لكن هذه الكائنات الشنيعة وجدته مناسبًا واتخذته سكنًا بسرعة غير مسبوقة .

واتجهت إلى المرحاض فأفرغت محتوى البراد مشمئزًا ، وضغطت زرّ الطرد .. فما إن زالت الزوابع المائية حتى ألقيت البراد نفسه فى القمامة .. إن



هذا عقرب ! عقرب لطيف الشكل مع صغاره يلهو داخل البرّاد
الذى كنت سأشرب الشاى فيه بعد دقيقة !

هستيريا الخوف من الحشرات والثعابين وسواها تؤدى عملها جيدًا ، وتعطى انطباعًا بأن هذا البراد لن ينظف أبدًا مهما غسلته أو غليته .. هنا يكتسب الخوف طابعًا خارقًا للمنطق والطبيعة ..

وتذكَرت قصة جندى الحلفاء الذى كان يحفر خندقًا ، وجرى ثعبان على ساقه ، فما كان منه إلا أن هوى بالفأس ليطير ساقه هذه .. هنا نجد الخوف قد تحول إلى هلع .. والمنطق قد تراجع لينزوى فى كهوف التطير غير المبرر .

وهكذا لم أنم ليلتها .. رحت أفتش فى خزانة الثياب ، وأبحث فى حذائى .. هناك ثعابين معينة - لا أذكر (الموديل) - تعيش هنا ، وتهوى المبيت فى الأحذية .. ربما هى الرائحة التى تثير شهيتها ..

إن هذا كابوس ..

كابوس لا يعلم إلا اللّه (تعالى) متى وكيف ينتهى ..

★ ★ ★

٧ ـ فئران ووطاويط .. إلخ ..

فى الصباح التالى كنت فى عيادة الجراحة حين جاء (بودرجا) ..

لاشىء يستحق الذكر فى قدوم (بودرجا) ، فهو موجود فى كل مكان يظهر من حيث لا تدرى ويختفى قبل أن تدرك ذلك ، وفى الغالب لا يعمل أى شىء سوى مضغ الجذور المعتادة والبقاء حيًا ..

لكن (بودرجا) فى هذه المرة كان يدارى وجهه ، ولا يكف عن الصراخ :

ـ « (داوا) .. هذه (داوا) قوية جدًا .. »

والـ (داوا) ـ كما يعلم قراؤنا المخضرمون ـ هى السحر المتعلق بالأرواح ، وهى التفسير المعتمد الجاهز لكل الظواهر الغامضة فى إفريقيا ، بدءًا بارتفاع حرارة المريض وانتهاءً بثورات البراكين ..

نزعت يد (بودرجا) عن وجهه فوجدت اللحم ممزقًا فى أكثر من موضع (ما عدا العينين لحسن الحظ) .. وكانت تمزقات صغيرة دقيقة تنزّ دمًا وتشى بأفواه دقيقة حقًا ..

ـ « فئران » ـ قالها وهو يولول ـ « وثبت علىّ فى المخزن .. »

* * *

قال (بودرجا) إنه دخل المخزن ليحضر بعض صناديق الشاش الطبى كما طلب منه ، وهناك فوجئ بأن بعض الصناديق مفتوحة ، وأن عددًا مهولاً من الفئران يتزاحم ويلتهم محتويات أحدها .. فئران تأكل الشاش الطبى ؟ هذه أشياء تسمع عنها ولا تصدقها ما لم تراها ..

تراجع بضع خطوات للوراء وقرر أن يعود ليبلغهم .. إن المدير لن يصدق هذا ، وكالعادة سيتهم طاقم (سافارى) بالإهمال ..

لكن (بودرجا) نسى أن ينظر إلى السقف .. وكانت عدة فئران تتعلق بالروافد الخشبية هناك ، فسرعان ما هوى عدد منها على رأسه وعلى كتفيه ، وبدأ العض والخمش ..

كان يحاول انتزاع فأر منها فيتلقى عضةً فى يده ، وسرعان ما يتعلق فأر آخر بلحمها .. هكذا تصير المشكلة مضاعفة ...

وقد قاوم كثيرًا جدًا ، وراح يركل الفئران المتكأكئة على ساقيه ، والتى تحاول تسلقِ السروال الأبيض الواسع الذى يرتديه ..

لا يدرى كيف ولا متى غادر المخزن وهو لا يكف عن التلوى والصراخ ، وأخيرًا رآه بعض الممرضين فهرعوا (يسلخون) الفئران سلخًا عن جلده بينما هو يطلق صراخًا كصراخ من يحرق حيًا ..

ـ « (داوا) ! »

وراح يرتجف كالورقة ، بينما هم يجرونه إلى عيادة الجراحة ..

★ ★ ★

بدأنا إعطاءه المصل المضاد للكلب مع مصل (غنغرينا الغاز) .. وصبت فى عروقه جرعة محترمة من المضاد الحيوى ، وبالطبع اكتفينا بغسيل الجروح وتطهيرها لأن عضات الحيوان لا تتم خياطتها ..

كان أهم شىء ظفرت به هو فأر ميت .. فأر غيرت الركلات صورته التشريحية تمامًا ؛ لكنه كان ضخمًا شرس المنظر ..

وضعته فى كيس بلاستيكى ، وتركت العيادة متجهًا إلى المعمل .. طلبت من خبير الفيروسات اليابانى (سوموشى) أن يقوم بتشريح المخ بحثًا عن فيروس السعار أو جسيم (نيجرى) الدالّ على الإصابة به ..

إن السعار مرض ارتبط بالكلاب ؛ لكنه ينتقل عن طريق لعاب الفئران والوطاويط والسناجب والجمال .. وفى حالات عديدة انتقل عن طريق الرذاذ المتطاير ، أو قرنية مزروعة لمريض مات دون أن يتبينوا سبب وفاته .. بعدها أدركوا أنه مات بالكلب ...

ودعوت الله أن تكون هذه الحالات عبارة عن تفش لداء الكلب بشكل غير مسبوق .. هذا على الأقل سيجعل لثورة الوحوش سببًا محددًا بدلاً من هذا الغموض .. هذا على الأقل سيترك لنا أملاً ...

أن تصاب الوحوش بالسعار لخير من أن تصاب بلعنة غامضة لا حلَ لها ..

بعد هذا توجهت إلى دكتور (باركر) لأبلغه بما حدث ، وكان قد عرف بالفعل ؛ لأننى اشتبهت فى إصابته بالسعار هو نفسه .. كان يرغى ويزبد ويقذف الأشياء فى كل صوب ..

ثم صاح مترنحًا :

ـ « أين هذا الروسى المفتقر للكفاءة ؟ إن لى معه كلمتين عن راتبه الذى يتقاضاه دون حقَ ! »

صادقًا قلت محاولاً تهدئته :

ـ « كله إلا الفئران والثعابين يا سيدى .. هذه تدخل من أيةَ فتحةَ مهما صغرت ، وخبرة الأخ الروسى مقصورة على الوحوش .. »

مط شفته السفلى مشمئزًا من الجميع ، وابتعد :

قلت لنفسى إن مشكلة الفئران تنتهى بالتطهير ، حملة تنظيف للمخزن أو رش غاز (السيانور) أو ... أو ... على الأقل هذا خطر يمكن السيطرة عليه ، ولا داعى لأن أحكى لأحد عن العقارب فى براد الشاى ، لكنى قمت بسدَ شقوق النافذة بشريط لاصق ، كما ثبتت قطعة من الورق المقوى بحيث لا أترك مسافة تحت الباب تسمح بمرور شىء :

لن يمرَ شىء إلى حجرتى ..

* * *

وفى العاشرة مساءً قام أحد الأطباء النيوزيلنديين ـ يدعى (بارتلمى) وهو مختص بأمراض النساء والتوليد ـ بفتح إحدى النوافذ الموصدة فى الطابق الثانى برغم التحذيرات المشدَدة من الروسى ..

كان بحاجة إلى التدخين ، وهو لم يكن من مدخنى دورات المياه كما لم يحبَ النزول للقبو ليجرب حظه ..

هكذا فتح النافذة وأخرج رأسه منها ولفافة التبغ تتدلى من شفتيه .. وراح ينشق الدخان فى نهم ، ثم

يقذفه إلى الخارج محاذرًا أن يعود ليشمه المدير بشكل ما ..

لا بد أنه كان يفكر .. يفكر فى (نيوزيلندا) وحبيبته ذات العينين البرتقاليتين ـ أعتقد أن هذا لون عيون النساء هناك ـ ويفكر فى أطروحته التى يعمل جاهدًا فيها ..

عندما بدأت الوطاويط تتسرب من النافذة ..

فى البدء لم يعرف ما هى ، وحسبها نوعًا من الحشرات الليلية العملاقة التى تعشق النور ، ثم أدرك من طيرانها الصامت المنتصب ، وحركة الأجنحة الرشيقة أن هذه وطاويط ..

راح يلوح أمام وجهه كالمجانين ، وتراجع للوراء .. لفافة التبغ سقطت من شفتيه ومعها عويناته .. كراش ! لقد تهشمت تحت حذائه ..

مئات ؟ آلاف ؟ ملايين الوطاويط تدخل من النافذة ، فتعطى ذلك الانطباع المألوف بأنها بقع اللون الأسود على الهواء ..

وارتطم أحدها بوجهه .. كان دافئًا مغطى بالفراء .. ملمسه كالفأر وله وجه فأر .. و... وعضة فأر .. تشبث بشفته السفلى وراح يعضها فى جشع ..

وطواط يعض شفتى السفلى ! تردّد الخاطر فى ذهنه فلم يبد له محببًا أو مسليًا .. هذا يحدث لى أنا بالذات ..

انتزعه بعنف من هناك ، وشعر بأنيابه الحادة الدقيقة تمزق الغشاء المخاطى للشفة ، وانغرست المخالب أكثر فى معصمه ..

لكنه راح يركض وهو يطلق ذات صراخ (بودرجا) (الحَيانى) حين هاجمته الفئران ظهر اليوم .

جاء رجال الأمن الذين صاروا متوترين كزنبرك المقلاع هذه الأيام ، وقبل أن يفهموا ما هنالك كانت الوطاويط قد اختفت تمامًا !

المشكلة هى أن أحدها لم يغادر النافذة .. لقد تفرقت بسرعة البرق فى أرجاء (سافارى) !

ولم يجد رجال الأمن ما يفعلون سوى إغلاق النافذة ، واقتياد البائس إلى قسم الطوارئ .. ومن تظنون كان هناك وقتها ؟

* * *

كنت هناك أثرثر مع (بيتر) الطبيب الألمانى عن سبب سقوط أقلام الحبر على سنونها ، ورنين جرس الهاتف دومًا حين تكون فى الحمام ، حين وجدت (بارتلمى) فى أسوأ حال ، وقد ذكرنى بمشهد (أوديب) بعد ما فقأ عينيه وراح يجوب البلاد تجره ابنته (أنتيجون) ..

لحسن الحظ كانت العينان سليمتين لكن وجهه كله كان ينزف ، وفهمت منه القصة كلها ، فكان أول ما طلبت هو جرعة من مصل الكلب ..

ـ « لا ! لا حقن ! أنا أخاف الحقن ! »

صارحته بإعجابى بسرعة بديهته .. إن من تعضه الوطاويط ويتذكر بعدها أنه يكره الحقن لهو إنسان سريع البديهة حقًا ...

حقنته بالـ HDCV والمصل المضاد برغم احتجاجه وصراخه .. إن الأطباء هم أسوأ المرضى .. هذه حقيقة .. لا شىء يفوق استمتاعهم بحقن الآخرين إلا خوفهم من الحقن هم أنفسهم ..

ـ « تقول كم وطواطًا رأيت ؟ »

ـ « مئات .. ربما ملايين .. »

فبدا لى هذا شائقًا .. مئات ـ ربما ملايين ـ الوطاويط قد دخلت وحدة (سافارى) ولم تخرج .. صحيح أنها ليست وطاويط مصاصة دماء ـ لأننا لسنا فى أمريكا الجنوبية ـ لكنها برهنت عن براعة كبيرة فى العض ..

قلت لمن جاءوا به :

ـ « أعيدوا تفتيش القبو والمخازن .. فليبلغ أحدكم الصياد الروسى لعل لديه رأيًا ما .. »

لكن الروسى كان قد سمع الخبر ، وجاء ومعه تابعه الأسود ذو العينين القلقتين .. سمعت حذاء الرجل الثقيل وأنفاسه الأكثر ثقلاً ، ثم ظهر هو نفسه مقطب الوجه على صلعته قطرات عرق ..

راح يتأمل المشهد شاردًا ، ثم قال :

ـ « هكذا إذن ؟ »

وابتلع ريقه وكرر الكلمة :

ـ « هكذا إذن ؟ هـذا جـزاء عدم تنفيذ التعليمات حرفيًا .. إن الوطاويط لم تدخل إلا من ثغرات فـى أداء الموجودين هنا ، الذين أظهروا مـن الجبـن والإهمـال ما يفوق ما أبدته تلك من شراسة وإصرار .. »

ونظر نحوى متهمًا :

ـ « ثمة أحمق يفتح النوافذ ليلاً ، وأحمق يجول فى العراء دون سقف .. كلكم لا تصدقون حتى تنتزع العقبان عيونكم جميعًا ! »

قلت له وقد استفزنى التلميح :

ـ « الحمقى يجولون فى العراء لأن حمقى آخرين سبقوهم .. »

واتبعت الخطوة رقم (٢) فى كتاب المشاجرات غير المكتوب : لا تبق واقفًا بانتظار الرد على عبارتك المهاجمة .. يجب أن تغادر المكان قبل أن يجد خصمك فرصة للرد .. وكذا فعلت قبل أن يقول شيئًا ..

هرعت إلى المعمل بحثًا عن (سوموشى) اليابانى ، وكان كما توقعت قد فرغ من فحص مخ الفأر الميت .. كان ما قاله ـ ببساطة ـ هو :

ـ « لا يوجد شىء يشير إلى إصابة فيروسية فى المخ .. هـذا الفـأر ليس مسـعورًا .. أعتقد أنه هاجم العامل لمجرد أنه يحبَ هذا ! »

ـ « أى أن الأمر خضع لنزوة مزاجية لا أكثر ؟ »

ـ « الدلائل تشير إلى هذا .. »

وهكذا غادرت المكان مبلبل الأفكار ، وعدت لغرفة الطوارئ متوقعًا أن الروسى غادرها طبعًا .. إن مشادتى معه لا تعنى أن أغادرها وإلا كان خراب بيتى واجبًا ..

للمرة الأولى فى تاريخ (سافارى) توصد أبوابها أمام المرضى ، فلا يتم السماح لهم بالدخول إلا بعد فتح بوابتين .. وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل وقد بدأت خمر السهر تتلاعب بعقلى .. ثمة سحابة ضبابية تغلف أفكارى وانطباعاتى ، فأحتاج إلى بعض الوقت كى أجد الكلمات التى أريد قولها ، وفى الغالب يخرج شىء آخر عكس ما أريد ..

كانت الثالثة بعد منتصف الليل حين سمعت البوابة تنفتح ، وصوت رجلى الأمن يتكلمان مع أحدهم .. ثم سمعت صوت خطوات ، وبعدها دخل غرفة الطوارئ ثلاثة رجال يحملان رابعهم ..

دعوتهم إلى إرقاده على منضدة الفحص ، وتأملته فوجدت أنه يعانى تهتكًا شديدًا فى أنسجة البطن .. لا بد أن الطحال تمزق وأن الكبد ليس أفضل حالاً ..

كان يرمقنى بعينيه الواسعتين ، والعرق يحتشد على جبينه وفوق شفته العليا حيث الشارب ، وتلمست يده فوجدتها باردة كالثلج .. هذا رجل فى حالة صدمة شديدة ..

بحثت عن أوردة صالحة فلم أجد ، من ثم أخرج (بيتر) أدوات الجراحة ، وبدأ - بسرعة البرق - يشق الجلد عند كاحل الرجل كى يظهر الوريد الصافن الذى يمرّ دومًا هناك ، ثم قام بتركيب جهاز الضغط الوريدى المركزى الذى يجعلنا نعرف مدى الصدمة ، وحجم السوائل التى ينبغى حقنها فى أوردة الرجل ..

فى الآن ذاته أخذت الممرضة عينة من دم الرجل ، وهرعت إلى المعمل لتحديد فصيلة دمه وضغط الغازات وحجم الخلايا المحزومة ..

كان الرجل يرمقنى بذات الذعر والتوجس .. يا لعيون هؤلاء السود ! إن الذعر البسيط يتحول فيها إلى هلع .. وأقل استفزاز يجعلها على وشك الوثب من محاجرها ..

رفعت سماعة جهاز (الإنتركوم) طالبًا مختص الجراحة - وهو فى هذه الليلة الدنماركى (ألفريد سيجورد) - وطالبًا إعداد غرفة الجراحة .. إن هذه جراحة كريهة ربما تستغرق ساعات .. وسألت القوم عما أصاب هذا الجريح .. لا بد أن الفهود هاجمته .. لقد صار هذا مملاً فى الآونة الأخيرة ، ولم أعد أندهش لسماع أخبار من هذا الطراز ..

كان أحد الرجال يفهم الفرنسية ويتكلمها ، فقال لى ..

- « لقد هاجمه أخوه ! »

نظرت للجروح المتهتكة التى لم أعتد رؤية مثلها فى مشاجرات (رجل - رجل) هذه ، وتساءلت :

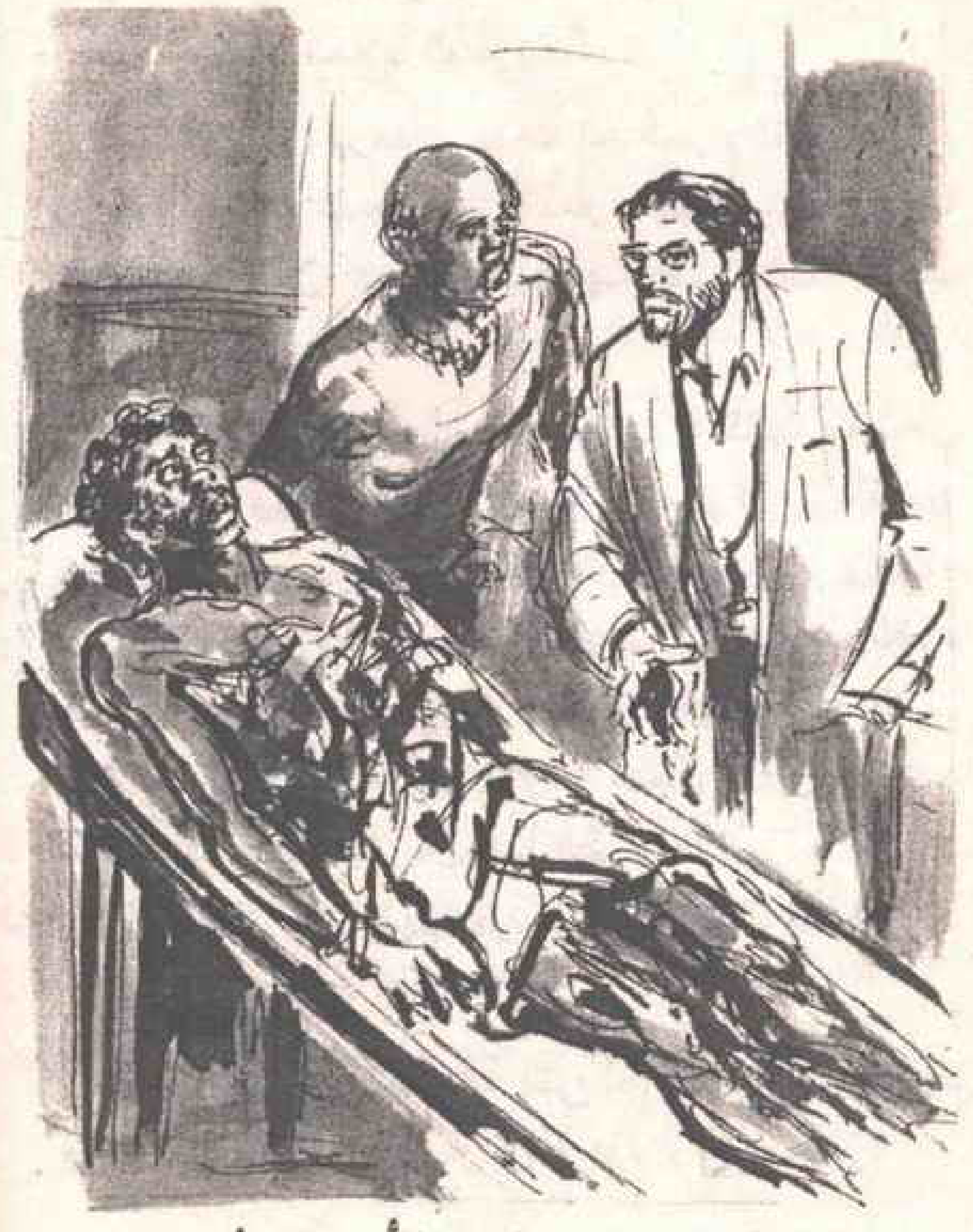
ـ « بِمَ هاجمه ؟ ليس بالسكين طبعًا .. »

اتسعت عيناه أكثر ، وغمغم :

ـ .. من تحدث عن سكين يا دكتور ؟ لقد هاجمه بأسنانه وأظفاره ! »

.... !

* * *



كان الرجل يرمقنى بذات الذُّعر والتوجُّس ..

٨ ـ أبلغوا الجيش ..

كان أحد الرجلين اللذين لا يتحدثان بالفرنسية ، لا يكف عن التلويح بإصبعه وترديد لفظة (كواى) بصوت عال ..

فيما بعد عرفت من (بودرجا) أنه ينفى وجود (كواى) فى الموضوع .. والـ (كواى) لمن يجهلون لغة (الفولانى) يتوقف معناها على نبرة الصوت ، ولغة (فولانى) من اللغات العجيبة فى هذا الصدد .. معنى الكلمة يتوقف على ارتفاع الصوت :

كواى عالية : معناها سكين ..

(كواى) متوسطة : معناها طاحونة ..

(كواى) هامسة : معناها دجاجة ..

فلو تكلم الرجل همسًا لكان معنى كلامه أنه لا توجد دجاجة فى الموضوع(*)!

(*) حقيقية ..

لكنه هنا ينفى بشكل قاطع وجود سكين .. لقد فعلها الفاعل بحماس باستخدام مواهبة الطبيعية : أسنانه وأظفاره !

★ ★ ★

كانت لهم ليلة حالكة السواد فى غرفة الجراحة ، واضطر الجراح إلى استئصال طحال المريض وجزء لا بأس به من كبده ، كما قام بتثبيت خرطوم فى صدره لشفط الدماء المتجمعة حول الرئة .. لقد هشم المعتدى أربعة ضلوع على الأقل ..

قال (بيتر) فى رضا بعد ما ابتعد المريض :

ـ « لا بأس .. هذا واحد لم تهاجمه الوحوش .. »

ـ « بل هاجمه وحش أعتى من الوحوش جميعًا ..»

الإنسان الذى يهاجم خصمه بالأسنان والأظفار ، هو وحش أحرز سبقًا فى مجال العنف والكراهية .. لكن العنف على كل حال عدوى تنتقل كأى وباء آخر .. أو هى نموذج لظاهرة الإشعاع (السايكو ـ فيزيائى) الشهيرة ، فما إن يبدأ الناس فى الصراخ وتكثر

الدماء ويعمَ الشجار، حتى يصاب الجميع بنفس الشىء ..

نحن فى ظروف دمويةَ غير مسبوقة ، ووحوش البريةَ تفتك بالبشر فى ضوء النهار ووسط أقرانهم ؛ لذا لم يعدْ غريبًا أن يستبدَ العنف بالبشر أنفسهم ، وأن يكثر الشجار الدموى الذى هو انفجار بركانى لنفوس متوترة ..

ارتحت لهذا التفسير ورضيت به ، ويا ليتنى ما فعلت ..

★ ★ ★

(كواى) ! (كواى) ! (كواى) !

★ ★ ★

وفى الثانية عشرةَ ظهرًا رأيت (بارتلييه) وسكرتيرته يمرّان فى أحد الممرات ، وكان لا يكف عن الكلام المتوتر ويشوّح بيديه كأنه قد اكتسب الجنسيةَ الإيطالية فى ظروف غامضة ..

فلما التقت عيوننا توقعت أن (يشخط) فىَ طالبًا أن أعود لعملى ، لكنه لم يفعل ، والأغرب أنه قرر أن يفسر لى سبب عصبيته ..

ـ « خطوط الهاتف مقطوعة تمامًا ! »

بحثت عن سؤال ذكى أوجهه ، فكان ما فتح اللّه علىَ به هو :

ـ « كيف حدث هذا يا سيدى ؟ »

نظر لى فى غيظ ، وغمغم :

ـ « وكيف لى أن أعرف ؟ »

ـ « لكن لدينا جهاز اللاسلكى والحمد للّه .. »

ـ « الإرسال مشوّش .. يبدو لى أنها نهاية العالم بحقَ هذه المرة .. »

ـ « ثمةَ احتمال وجود بقع شمسية أو شىء من هذا القبيل .. هذه الأشياء تحدث .. »

صاح فى عصبيةَ والعرق يبلل وجهه :

ـ وكيف لى أن أعرف ؟ لم يعد الإرسال الإذاعى

والتلفزيونى يصلانا ، ولا صحف هاهنا .. نحن معزولون
تمامًا هذه المرة ، فلو أغرق الطوفان البلاد فلن
نعرف إلا حين يبلل الماء آذاننا .. »

سألته متوقعًا أن يحرجنى بمزيد من الكلا
الحادّ :

- « هل تتوقع أن تزداد الأمور سوءاً ؟ »

مط شفته السفلى وواصل المشى مع سكرتيرته
مبتعدًا :

- « أتوقع .. لهذا أحاول الاتصال بالجيش .. أري
كتيبة على الأقل ترابط هنا أمام (سافارى) .. إ
على عاتقى مسئولية كل هذه الجنسيات التى اجتمعت
فى مكان واحد ..

وابتعد .. فلم أفهم الوسيلة العبقرية التى ينوى به
الاتصال بالجيش أو بـ (ياوندى) .. هل ينوى استعما
التخاطر أو توارد الأفكار ؟

ثم أدركت أنه يتكلم عن ...

* * *

الهليوكوبتر الخاصة بـ (سافارى) ..

هى ذى واقفة على الممر المرتجل الذى تهبط عليه
فى الغالب ، ومحركاتها تدور وهديرها يصمّ الآذان ،
بينما الغبار المتطاير فى كل صوب يحرق عيون
الجميع .

كنت فى شرفة الطابق الثانى أرمق المشهد ، وأرى
الطيار الألمانى - أعتقد أن اسمه (يورجين) - وقد
ارتدى منظار الشمس ، وثبت خوذة على رأسه ،
وراح يتلقى تعليمات ما من الصياد الروسى .. لا بد
أن الرجلين متفاهمان تمامًا .. لقد قاما برحلتين حتى
الآن معًا ..

وجاء (بارتلييه) يترجرج كعادته ، وراح
يلوح بذراعيه شارحًا خطته .. وشعرت بمن يسند
ذقنه الصلبة على كتفى الأيسر ليرى ما أراه ،
فنظرت للوراء لأجد (بسّام) يرمق المشهد فى
اهتمام .

قال لى دون أن ينظر نحوى :

ـ « يحاولون الاتصال بقوات الجيش المرابطة فى (أداماوا) » ..

قذفت قطعة من اللادن إلى فمى ، وسألته :

ـ « هل هناك قوات جيش فى (أداماوا) ؟ »

ـ « المفترض .. لو لم تكن الصراصير قد التهمتهم .. »

وراحت الطائرة ترتفع ببطء بتلك الحركة المتأرجحة المألوفة ، حتى صارت فوق مستوى إبصارنا ، ثم دارت مبتعدة .

وتمنيت لو كنت معهم .. إنهم يبتعدون عن الحصار .. عن القيود .. عن الخطر .. هم مثل السحب يغدو الخطر مجرد بقع ملونة عند أقدامهم .. إنهم الآن أقوى من الموت ذاته ..

وتنهدت شوقًا وحنينًا ..

لو كانت معى طائرة كهذه لحلقت فى السماء نحو (ياوندى) أولاً ، لأحمل معى (برنادت) ، ثم أتجه إلى الشمال الشرقى .. إلى مصر .. سأهبط بالطائرة

فوق سطح دارنا الآيلة للسقوط ، لكنها تسقط هذه المرة على الأقل ، وأقول لمن حولى : لتذهب أيام (سافارى) إلى الجحيم .. هناك الوطاويط تلتهم أنوف القوم ! تصوَّروا !

الطائرة الآن نقطة تبتعد فى الأفق لتذوب فى اللانهاية ..

استدرت لأحكى خواطرى لـ (بسام) لكنى وجدته يرمق الأفق جاحظ العينين ، وبصوت مبحوح همس :

ـ « انظر ! ربَّاه ! »

قال (ربَّاه) بالفرنسية كعادته حين ينفعل ، ونظرت إلى ما ينظر إليه ، فوجدت الأفق حول الطائرة يزدحم بآلاف النقاط السوداء .. غربان .. هذا هو ما أظنه من مسافة كهذه ..

ورأيت الطائرة ترتفع .. (يورجين) يحاول الارتفاع بها فوق مستوى الهجوم ؛ لكن الهجوم يرتفع بدوره إلى مستواه .. عشرات النقاط السوداء تصطدم بجسم

الطائرة ومراوحها .. نراها من هنا بوضوح ، فلا بد أن المشهد هناك كابوس حقيقى .. الغربان ثقيلة وزجاج النافذة هشّ .. بضع محاولات انتحارية وجثث الغربان تقتحم قمرة القيادة ..

إن ما يلى هذا حتمىّ ..

أكاد أسمع صرخاته بالألمانية .. أسمع سبابه .. أسمع محاولاته للسيطرة على الطائرة التى اختلّ الضغط فيها نهائيًا ، والتى ـ حتمًا ـ تلف محرك من محركاتها ..

ثم تهوى الطائرة كالحجر ، وتتوارى وراء خط الأفق ..

بعدها يدوى انفجار بعيد ، ولثوان يتلون الأفق بلون أحمر ، ثم يتصاعد الدخان الأسود الكثيف من مكان ما فى الأحراش ..

تبادلت النظرات مع (بسام) ، وارتجفت شفتاى ..

لقد تخيلت أن هذه الطائرة تقلنى ، لهذا لا أجد غرابة فى أن أشعر بألسنة النيران تحرقنى ..

لقد مات (يورجن) .. لا شك فى هذا ..

وهتف (بسام) وهو يضرب جبهته بكلوة يده :

ـ « يا لطيف ! هذه الوحوش والكواسر تتصرف كأنها مدربة ، وكأنها جيوش تلعب ببراعة لعبة الحصار .. »

لم أجد ما أردّ به ، فقد كانت كل أطرافى ترتجف .. واللسان طرف منها على ما أعتقد .. فقط كنت أرسم تفاصيل المأساة فى خيالى .. لقد صار من واجبى اليومى فى إفريقيا أن أرى احتراق الطائرات بمن فيها ..

ونظرت من عل لأرى ردّ فعل (بارتلييه) ومن معه ، لكنى وجدتهم يثرثرون كأنما فى حفل عشاء رسمى .. واضح أنهم لم يروا المشهد الذى رأيناه نحن بوضوح من الشرفة ، ولعلهم حسبوا الانفجار صوت محرك الطائرة ..

أشرت من فوق ، وصحت بـ (بارتلييه) :

ـ « سيدى المدير ! »

ناديته ثلاثًا حتى انتبه فنظر لأعلى مُغتاظًا كأنما

يسألنى عن سبب تركى العمل ، وانهماكى بمشاهدة الطائرات كالأطفال ، فأشرت له إلى الأفق .. نحو لسان الدخان الصاعد المتراقص مع الريح ..

ومن موضعى لمحته ينظر إلى المشهد ، ثم يشير للصياد الروسى كى يراه معه .. مجموعة حمقى يرمقون الأفق فى غباء وعدم فهم ..

* * *

٩ ـ نريد متطوعين ..

كنا جالسين جميعًا فى قاعة الاجتماعات ـ أو (التيوتور) ـ ننتظر فى توتر ما سيقوله (بارتلييه) العظيم تفسيرًا للموقف .. وكنا على استعداد لقتله لو قال شيئًا سخيفًا على غرار : (الموقف خطر) أو (أنا أشعر بقلق بالغ) ..

سيكون الأمر ساعتها كمن يراك تتصبب عرقًا عاجزًا عن التنفس ؛ فيقول لك فى ذكاء : الطقس حارٌ .. أليس كذلك ؟

تنحنح (بارتلييه) وتأمل وجوهنا بضع دقائق ، ثم قال :

ـ « الموقف خطر .. إننى أشعر بقلق بالغ ! »

ساد الصمت وقد وجدنا أن مهمة قتله ستكون عسيرة بحق ، وسرت بضع ضحكات عصبية ، ونظرات من نوع (ثم ـ ماذا ـ أيضًا ؟) .. بعدها عاد السكون الرهيب ..

قال (بارتلييه) بهدوء :

ـ « ها نحن أولاء قد فقدنا طيارنا الألمانى العظيم (يورجين) ، وفيما بعد سيكون لدينا الوقت الكافى لتأبينه ؛ لكنى ـ حاليًا ـ لا أجد مناصًا من محاولة ثانية وثالثة للاتصال بالجيش .. »

نهض (آرثر شلبى) والسيجار فى فمه ، ونظر إلى الجالسين ـ وهى طريقة شهيرة لسرقة الحضور من المنصة ـ وقال :

ـ « لا أجد سببًا قويًا يدعونا إلى ذلك .. ما زال بوسعنا أن نغلق علينا أبوابنا ونتأكد من عدم وجود ثغرات فى جدار الأمن .. ولن يلبث هذا الظرف أن ينتهى .. »

سأله أستاذ أمراض جلدية سويدى فى شك :

ـ « ومن قال إنه سينتهى ؟ »

فى عصبية قال (شلبى) :

ـ « لأن هذه طبائع الأشياء .. الوحوش لن تظل جائعة بلا هدف ولا شىء يكبحها .. طبائع الأشياء أن

تخمد النيران وتهمد الأعاصير وتنتهى العواصف .. هذا هو (الإنتروبى) .. قانون (الهيوليات) المعروف لو كان هنا من يفهم فى الرياضيات .. »

قال (بارتلييه) وهو ينحنى على المنصة ، ليكون صوته أعلى :

ـ « بصرف النظر عن (الهيوليات) يا دكتور (شلبى) .. أعتقد أن جدار أمننا هذا قد برهن أكثر من مرة على أنه واه متداع .. لقد تكررت حوادث الاختراق أكثر من مرة ، وفى هذه اللحظة يوجد ألف وطواط لا يعلم سوى الله (تعالى) أين هى .. ألف وطواط داخل وحدة (سافارى) وما خفى كان أعظم ..

« يا سادة لا أعرف رأيكم لكنى لن أنتظر الحادث القادم .. »

ثم دارت عيناه على الموجودين ببطء ..

ـ « أنا بحاجة إلى متطوعين يحاولون عبور الإقليم حتى يصلوا إلى (أداماوا) .. هل أسمع من يقول : أنا ؟ »

تشاغل الجميع بأربطة أحذيتهم ، وقد شعر كل جالس بأنه لو رفع عينيه فلن يفلت من الاختيار .. دائمًا يتكرر هذا المشهد، ودائمًا أقع أنا فى الفخ بكل سهولة.. لهذا أوقعت قلمى تحت المقعد ثم نزلت لأبحث عنه .. فلأقطع ذراعى لو وجدته قبل ربع ساعة ..

هنا أنقذنا مشهد غير متوقع ..

★ ★ ★

كنت قد رأيت الصياد الروسى واقفًا مع تابعه الأسود على بعد مترين من المنصة .. كان أكثر فخرًا وكبرياء واستعراضًا لعضلات صدره من أى وقت آخر ، وهو ردّ فعل منطقى لمن تسوّل له نفسه أن يحسبه فشل فى مهمته .. لسان حاله يقول : أنا لم أفشل .. أنتم فعلتم بسبب حماقتكم ..

كان مقطبًا جبينه يصغى لما يقال فى جدية ، وأشعل سيجارًا غليظًا غير مبال بتعليمات حظر التدخين .. هذا من حقه على كل حال ما دام (شلبى) لم يعط مثالاً طيبًا ..

فجأة اتسعت عينا الأسود .. لم ير أحد هذه النظرة سواى ؛ لأننى كنت أتأمله فى اهتمام فى ذات اللحظة .. رأيت فمه يرتجف مرارًا ، ورفع ذراعيه قليلاً لأعلى .. خيل إلىّ أنه دمية (ماريونيت) تقاوم ـ بلا نجاح ـ جذب الخيوط البلاستيكية التى تحركها .. راح يتأرجح أمامًا وخلفًا كمن اختلت نقطة اتزانه ..

قلت لنفسى : هى ذى نوبة صرعية عظمى تصيب الرجل الآن .. كأن هذا ينقصنا ، ورأيت الأخ (ميشكا) يلتفت نحوه مندهشًا غير مصدق ما يحدث .. و (بارتلييه) ما زال يتكلم :

ـ « إن هذه المهمة المعقدة تتطلب أن .... »

وفى جزء من الثانية وثب الزنجى على الصياد الروسى .. كان الفارق بين القامتين صارخًا إن لم يكن مثيرًا للضحك .. لكن الروسى لم يضحك حين تعلق تابعه بعنقه وهو يعوى كالأبالسة ، وغرس أسنانه فى لحمه ، وبذراعيه اعتصر صدره وأنشب أظفاره فى جلده ..

صاح بالروسية شيئًا ما لا بد أنه على غرار : ماذا دهاك يا أحمق ؟ هل جننت ؟

لكن الزنجى كان مستميتًا فى الهجوم ، وهبَّ كل الجالسين يتابعون المشهد المثير ، على حين تراجع (بارتلييه) للوراء ورفع أوراقه أمام وجهه فى حركة غريزية للحماية قديمة قدم الإنسان ذاته ..

المشهد يزداد شراسةً ودموية .. ذكرنى بالضبع حين يتعلق بعنق الأسد .. المشكلة هى أن الأسد يجد عنتا حقيقيًا فى عمل شىء .. فأى دفاع يحتاج أولاً إلى أن يتخلص من الوحش الصغير المتعلق بعنقه ..

راح (ميشكا) يدور حول نفسه عدة مرات ، ووقاره يمنعه من الصراخ أو الاستغاثة .. فى النهاية نجح فى الإمساك بعنق الزنجى وأطاره فى الهواء ليرتطم بالحائط ، ويسقط مع الأنين المتواصل ..

لكنه لم يكن قد اكتفى بعد ..



فى النهاية نجح فى الإمساك بعنق الزنجىّ وأطاره فى الهواء ليرتطم بالحائط ..

من جديد لملم أجزاءه المبعثرة وهبَ يريد مواصلة القتال .. هنا اكتفى الصياد بتوجيه ركلة عاتية إلى أعلى بطنه بحذائه الثقيل ذى الرقبة .. ومن جديد - أيضًا - طار الزنجى المتحمس ليرتطم بالجدار ..

وهنا كان رجلا الأمن الإفريقيان قد اجتازا فترة ردّ الفعل التى طالت أكثر من اللازم ، وهرعا يمسكان بالوحش الذى فقد السيطرة على نفسه ، واقتضاهما الأمر جهدًا غير هين ..

قال (ميشكا) وهو يجفف العرق الغزير على عنقه :

- « لقد جُنّ تمامًا .. تأكدا من السيطرة عليه .. »

وبصعوبة حمل الرجلان أسيرهما الزنجى خارج القاعة ..

ساد الصمت الرهيب بعدها بضع دقائق ، فلم يكن المشهد مألوفًا فى هذه القاعة العلمية ، وأخيرًا تكلَم (ميشكا) بصوته الغليظ :

- « ما الأمر ؟ إن الانهيار العصبى يحدث لأى واحد .. »

قال (شيلبى) فى شك :

- « وهل هذا الهياج انهيار عصبى حقًا ؟

- « نحن فى ضغوط نفسية مريعة .. »

- « حقًّا .. لكنى لا آمل أن أرى هذا الانهيار يصيب الجميع هنا .. لقد تحول إلى ذئب مسعور .. »

عاد صوت (بارتلييه) يتردد بعد ما تحشرج قليلاً :

- « من جديد نكرر : ما يحدث هنا لا علاقة له بانتشار عدوى السعار .. إن الحيوانات التى تمَ تشريحها لا توجد فيروسات فى أمخاخها .. وهياج هذا الفتى مجرد تفاعل نفسى شديد .. »

والحقيقة هى أن كثيرين منا سألوا هذا السؤال فى أذهانهم ..

قال (بارتلييه) :

ـ « نعود لموضوعنا بصدد إرسال بعض الشباب المتحمس إلى (أداماوا) .. إننى هنا أرشح السيد (ماكسيم إيزاريوفتش منكوف) بالطبع لأن فرصة نجاة الآخرين صفر من دون عونه .. أرشح كذلك دكتور (عبد العظيم) لأنه شارك كثيرًا فى مهام مماثلة .. »

آه ! هذا هو ما كنت أخشاه ! المشكلة هى أن الرجل يبدأ بذكر اسمى فى كل مرة ثم يفتش عن مهمة خطرة تناسب هذا الاسم .. المشكلة هى أننى فى متناول اليد أكثر من اللازم ، وقد برهنت على براعة غير عادية فى عدم الموت مهما تعددت الظروف ...

كنت شاردًا فى خواطرى فلم أسمع بقية الأسماء .. لكنى عرفت دون جهد أن (بودرجا) البائس فى القائمة .. هذا محتوم فى هذه الوحدة المقيتة .. تُرى هل أرفض المهمة رسميًا أم أتمارض ؟

طبعًا يهددنى الرفض بالفصل من الوحدة .. هذا هو الجواب الوحيد لدى (بارتلييه) كلما حاولت أن أستقل برأيى ..

وهكذا لم يبق سوى حلّ واحد بعدما انفض الاجتماع .. بدأت أترنح وأنا خارج من القاعة .. اخضرّ لونى ـ لا أدرى كيف ـ واعتصرت بطنى .. سمعت من ينادينى فلم أسمعه ..

هرعت إلى غرفتى ، ورقدت على الفراش أئن .. وكما هى العادة فى أمور كهذه اندمجت فى التمثيل حتى آلمنى بطنى فعلاً .. إن أعراض ما أنا مصاب به الآن واضحة تمامًا .. قىء متواصل وألم فى المعدة يخترق بطنى إلى الظهر بين عظمتى لوحى الكتف ..

فى مصر لن ينخدع طبيب واحد بهذا ، لكنهم هنا شديدو الوسوسة كثيرو الشك ، ولن يجرؤ أكثرهم فظاظة على استبعاد وجود ثقب فى قرحة معدية .. لِمَ لا ؟ لقد أرهقنى القلق يا سيدى ، والقلق لا يلائم قرحتى ..

طبعًا لن يطول الشك ، لكن هذا سيعطلنى بضع ساعات تسمح بأن يختاروا أحمق غيرى لهذه المهمة البائسة ..

ضمير ؟ ضميرى فى أحسن حال .. لماذا تسأل ؟ ليس من واجبى هنا أن أموت .. أنا طبيب ولست ساعى بريد ، ومهمتى علاج المرضى لا عبور الأحراش .. والواجب الأهم الذى أعرفه هو أن أعود إلى مصر حيًّا ..

طال انتظارى كثيرًا حتى داهمتنى سنة من النوم ، ثم سمعت من يقرع الباب ويناديني ، فصحت بصوت متحشرج :

ـ « الباب مفتوح .. ادخل ! »

وبطرف عينى رأيت الصياد الروسى ، ومعه المدير ونائب المدير .. كانوا موشكين على أمر جلل كما بدا فى عيونهم ..

سألنى (بارتلييه) وقد أدهشه أننى راقد :

ـ « ما بك ؟ بحثنا عنك بعد الاجتماع فقيل لنا إنك اتجهت مترنحًا إلى حجرتك .. »

عضضت الملاءة وأننت أنّة عذاب حارّة :

ـ « معدتى يا سيدى .. معدتى .. إن كل هذا التوتر ... »

بدا الارتباك والقلق على المدير ، فهو طبيب فيروسات نسى كل شىء عن الطب السريرى منذ دهور .. لا بد أن عذاب المرضى يرهقه نفسيًا ويوتره .. خاصة وهو لا يعرف البتة ما ينبغى عمله ..

لكن (باركر) لم يرتبك ولم يقلق .. صحيح أنه مختص فى علم الأمراض ، لكنه وغد كذلك ولا يسمح لأحد بأن يخدعه ..

دنا منى واعتصر معدتى بكفه الثقيلة ، فعويت كالذئاب .. قال فى شك وهو يثبت عينيه فى عينى :

ـ « توقيت غريب .. هه ؟ »

هتف الصياد الروسى ، وهو يمدّ يده فى جيبه ليخرج قارورة صغيرة :

ـ « دعنى أتول أمره يا سيدى .. إن بعض (الفودكا) سوف ... »

ـ « لا ! »

قلتها فى حزم .. وشرح له المدير أننى لا أشرب أى نوع من (الهباب) لأسباب دينية ، فهزّ رأسه فى

حيرة بينما واصل (باركر) اعتصار معدتى حتى أوشك أن يثقبها فعلاً ..

ثم قال وهو يتراجع :

ـ « لا بأس .. لن نعرف أبدًا ما إذا كان صادقًا أم هو مجرد جندى يفرّ من الميدان .. سأطلب البروفسور (شرودر) كى يجرى له فحصًا بالمنظار الضوئى .. ربما احتاج الأمر إلى جراحة استكشافية ! »

وثب قلبى فى فمى .. هذا الرجل لا يعرف الرحمة ..

قلت وأنا لا أكف عن الأنين :

ـ « أعتقد أن حقنة من (الرانتيدين) ستزيل الألم يا سيدى .. ليست هذه أول مرة .. »

ـ « إذن تأخذها الآن حالاً .. »

وبعد دقائق جاءتنى الممرضة الإندونيسية (مُنى) ، وأفرغت المحقن .. آى ! فى ذراعى ، بينما وقف

(بارتلييه) والقلق يأكل ملامحه كلها .. هذا الرجل طيب القلب حقًا ..

الآن يسرى الـ (رانتيدين) فى دمى ، ويقضى على حموضة معدتى .. الآن فقط أظهر بعض الراحة ، وبإنهاك ابتسم ..

ـ « ! إننى أف .. أفضل حالاً .. شكرًا ! »

وبشك يسألنى (باركر) :

ـ « بهذه السرعة ؟ لا بد من أن يمنع العقار الحمض أولاً .. »

ـ « إنه يعمل بسرعة إذا تعلق الأمر بى .. »

من جديد ثبت عينيه فى وجهى :

ـ « هل يمكنك اللحاق بالحملة ؟ إن عدم لحاقك بها سيجعلنى قلقًا كما تعلم ، ولن أستطيع الامتناع عن طلب د. (شرودر) ! »

نهضت وتنفست الصعداء ، وغمغمت :

ـ « أعتقد أننى قادر على اللحاق بها .. الحق أننى سأموت كمدًا لو لم أفعل ! »

وفى سرى دعوت عليه بالخراب ، وبأن تتصارع الضباع على جثته الممزقة ..

* * *



١٠ ـ أرض الأشباح ..

يذكر القارئ ـ هل كان هذا فى الكتيب السابع أم السادس ؟ ـ أن إقليم (أداماوا) هو إقليم جبلى يقع فى شمال البلاد ، وهو المركز الأساسى للرعى فى (الكاميرون) ، وتفصله المستنقعات المخيفة عن (تشاد) ..

وفى نفس المنطقة تقريبًا توجد مجموعة يسيل لها لعاب الجيولوجى من الغابات البركانية ، المحيطة بواحد من البراكين النشطة فى إفريقيا هو (ماونت كاميرون) ، وهو الذى فاجأ البلاد بانفجار شديد عام ١٩٨٦ مما أدى إلى قتل ألف وسبعمائة نسمة فى دقائق ..

* * *

لم يكن ثمة طريق مُمهّد وسط غابات السافانا هذه .. لهذا راحت رءوسنا تصطدم بالسقف ، برغم أن

السائق لم يتجاوز العشرين كيلومترًا فى الساعة .. وشعرت بأن عظامى وُضعت فى خلاط تمهيدًا لتحويلها إلى مسحوق لتقوية عظام الدجاج ..

ورحت أتذكر أغنية الأطفال الإنجليزية التى سمعتها من (شيلبى) ، والمفترض أن الغول يرددها وقد شمَّ رائحة غريبة فى بيته :

فى فاى فو فام !

إننى أشمّ رائحة رجل إنجليزى ..

فلئن كان حيًا أو ميتًا ..

سأسحق عظامه وأصنع منها دقيقًا لخبزى !

* * *

فى فاى فو فام !

فى فاى فو فام !

* * *

لمن قرءوا (رقصة الموت) منكم ؛ يمكن أن أقول إن مجموعتنا لم تختلف كثيرًا عن أفراد الحملة الثانية : أنا و (بودرجا) طبعًا .. والسائق الكاميرونى ..

و (أندرسن) السويدى .. وصيادنا الروسى وهو الوجه الجديد الوحيد بيننا ..

أما السيارة التى كنا فيها فسيارة (فان) تستعملها الوحدة للإسعاف ، فلم يعد ركوب سيارات (اللاندروفر) مأمونًا .. وكان ثلاثة منا يجلسون فى القمرة الخلفية حيث توضع النقالة وأدوات الإسعاف ، بينما جلس الروسى جوار السائق فى المقدمة يثرثر ويدخن ..

ومن زجاج النافذة الخلفية كنت أرى ما نمرّ به ..

لقد استحال هذا القطاع من البلاد إلى أرض أشباح .. لا بشر .. لا سيارات .. لا شىء ..

ربما ترى من آن لآخر قطيعًا من الضباع يحتشد حول فريسة ما ، أو أسرة من الأسود غافية فى شمس الظهيرة ، وفى مرة رأينا خرتيتًا يتسلى بإثارة الغبار حول نفسه ، لكن لا أثر لحياة البشر ..

لقد أعلنت الوحوش حظر التجوال ، وفرضت سلطانها المطلق على المكان ..

* * *

فى فاى فى فام !

★ ★ ★

فلما استبدَّ بى السأم بعد ساعتين من القيادة ، طلبت أن أجلس فى قمرة القيادة .. قرعت الزجاج عدة مرات لأن (أندرسن) لم يكن بالرجل الثرثار .. بالواقع لم يكن ممن يعملون أو يقولون أى شىء .. كان (يلعب دور البارد) كما يقول الأمريكيون ، والبرود صفة محببة عند الأجانب عمومًا حتى إن الأمريكيين يصفون كل ما هو لطيف أو ظريف بلفظة (كول) وهى توحى بالبرد كما نعلم ..

قررت لهذا أن أستريح قليلاً من لطف وظرف (أندرسن) ، وتوقفت العربة كى أستطيع الجلوس هناك فى المقدمة ، ما بين الروسى والسائق .. وعادت العربة تشق طريقها ..

كان الصياد الروسى عاكفًا على فك وتنظيف بندقيته ، وهو عمل كان يؤديه ببراعة برغم المطبات ..

سألت السائق الكاميرونى :

- « هل معك وقود كاف ؟ »

واصل مضغ تلك الأعشاب الكريهة التى لا يكفون عن مضغها ، وقال :

- « وقود .. مياه .. نعم كل شىء يا دكتور .. »

شعرت ببعض الراحة .. أرجو ألا ينفجر إطار ما بفعل الحرارة ، فلا أحب موقفنا حين نقف بعض الوقت وسط هذه السهول المنذرة بالخطر ، حيث يمكن لأى شىء أن يتوارى وراء أعشاب (السافانا) العالية ..

وسألت الصياد الروسى :

- « ألم تكوِّن بعد انطباعًا عن حقيقة ما يحدث ؟ »

ارتسمت ابتسامة على وجهه القاسى ، وجفف قطرات العرق على صلعته وقال :

- « بلى .. لقد شعرت بهزتين فجر اليوم .. ألم تشعر بهما ؟؟ »

هزتين ؟

- « هل تعنى أننا دانون من زلزال ؟ »

- « لقد كنت هنا عام ١٩٨٦ ، وشعرت بالشىء ذاته .. إن (ماونت كاميرونى) موشك على الثورة .. لو كانت لدينا وسائل اتصال لعرفنا هذا يقينًا من هيئات الأرصاد والمراقبة الأرضية .. »

ثم أغلق البندقية فأصدرت صوت الـ (كليك كراك) المميزة ، وقال :

- « وفى المرة السابقة كذلك توقف الإرسال اللاسلكى ، وتعطلت خطوط الهاتف ، وحدثت هجرة سريعة لغزلان (أمبالا) .. »

- « تريد القول إن الوحوش شعرت بثورة البركان مبكرًا واعتراها هذا الهياج ؟ »

- « بل أعتقد أنها استنشقت غازًا ما ينبعث منه .. أضف لهذا هياج الوحوش المعتاد حين تثور البراكين وتبدأ الزلازل .. لقد فاتنى أن أتوقع هذا ، ببساطة لأننى لم أشعر بأية هزّات .. أما الآن فقد غدا الأمر واضحًا تمامًا ..

- « والحل ؟ »

- « سنواصل ما نقوم به .. هذا هو الحلّ .. فى الغالب لن يصلنا الأذى حتى لو انفجر البركان .. ما زالنا بعيدين عنه بما يكفى .. »

ثم أردف وهو يمضغ سيجاره ، وينظر من النافذة :

- « هذا هو سبب إصرارى على هذه الحملة .. لو قابلنا الجيش لوجدنا عنده الخبر اليقين .. لا أحب أن نظل محبوسين فى (سافارى) ننتظر ، بينما كل البلاد تفرّ من خطر البركان .. »

نظرت إلى الطريق الوعر أمامنا وابتعلت ريقى الملىء بالغبار ..

تُرى ما الذى يخبّئه لنا هذا البلد ؟

* * *

توقفنا لنبرّد محرك السيارة قليلاً ..

وفرد (ميشكا) الخارطة أمامه ، وراح يتأمل الاتجاهات ثم أخرج بوصلة وضعها على (تابلوه) السيارة أمامه ، وغمغم :

ـ « خمس ساعات أخرى .. سنكون فى (أداماوا) قبل الغروب ما لم يحدث شىء .. »

كنت أنا منبهرًا بقدرته على فهم ذلك اللغز المدعو (بوصلة) .. فقد كنت أعتبرها نوعًا من معجزات السحرة ..

وترجلنا أخيرًا وسط (السافانا) الكثيفة على الجانبين .. عضلاتى كلها تحتج طالبة حقها فى بعض ساعات من الراحة .. للمرة الأولى أدرك أن لدىَ ردفين وأنهما يتألمان بشدّة ..

قال (ميشكا) وهو يرمق الأفق :

ـ « كونوا حذرين .. إن هذه الأعشاب يمكن أن تخفى ديناصورًا ! »

وطلب (بودرجا) أن يمنحه الفرصة ليلبى نداء الطبيعة .. وهو ما حسدته عليه ..إن العرق لم يترك فى دمى قطرة ماء تصلح للتحول إلى بول ، وهكذا

بحثت عن (الزمزمية) وجرعت نصف لتر من الماء دون توقف :

وأحشائى تصدر صوت (طش ش !) المحبَب كما تفعل المكواة الساخنة حين ترش عليها قطرات من الماء ..

كنا واقفين على جزء مرتفع نوعًا من الأرض .. وللحظةَ شعرت بأن قدمىَ تستقبلان نوعًا شاذًا من الهدير ..

نفس الشىء سمعه (ميشكا) وأحسه ..

بدت الخطورة على وجهه ، وفى حزم قال :

ـ « إلى العربة حالاً .. »

وناديت (بودرجا) ليلحق بنا ، فبرز من بين الأشجار متذمرًا وهو يحكم إغلاق سرواله ، وسرعان ما وثب داخل العربة ..

ظللنا صامتين بلا صوت سوى اللهاث ، وطنين الذباب ..

كان (ميشكا) يتأمل الأفق فى توتر بحثًا عن مصدر الصوت ..

ثم همس وهو يشير إلى بعيد :

ـ « هذا هو ! »

ولمحت الغبار أولاً .. ثم بدأت أتبين الأمر ..

هذا حشد لا يقل عن الألوف من الجواميس الوحشية ، كلها تركض فى هياج حتى لترتج الأرض ارتجاجًا تحت حوافرها ..

ولحسن الحظ كان القطيع يركض فى اتجاه متعامد على اتجاهنا ، فلم يدنُ منا .. لكنى ارتجفت إذ تصورت ما قد يحدث لو كانت سيارتنا فى الطريق ..

هدير .. هدير .. وغبار .. غبار ..

مشهد يستغرق دهورًا ، وإن كان لم يتجاوز العشر دقائق ..

قال (ميشكا) فى رهبة :

ـ « إنها ثائرة .. والواضح أنها تبتعد شرقًا .. أى أنها ـ ببساطة ـ تفرّ من موضع (ماونت كاميرون) .. »

بعد ثوان بدأ الهدير يقل والغبار يتزايد :

وخلا المسرح من ممثليه ضخام الجثث ، فلم تبق إلا الرهبة ..

ـ « فلنواصل رحلتنا .. »

* * *

كانت القرية جاثمة أمامنا ..

من بعيد يتلوى نهر (لوجون) فى رحلته الطويلة إلى (تشاد) ، بينما الطيور الجارحة تتصايح هنا وهناك ..

أما عن الأكواخ فكلها خالية .. لا أثر لمخلوق بشرى واحد .. كل شىء ينبىء برحيل متعجل كله فوضى واضطراب ..

الأشياء المتناثرة فى وسط الساحة بين الأكواخ هى جثث .. جثث آدمية لا تسرّ الناظرين ، والطيور الجارحة تتصارع على انتزاع هذا الجزء أو ذاك منها ..

ترجل (ميشكا) من السيارة ، ووقف يرمق المشهد الدامى ، ثم صوَّب بندقيته إلى السماء وأطلق طلقتين ..

بوم ! بوم !

تردد رجع الصدى وسط كل هذا الصمت .. لكن الطيور لم تبدُ متحمسة للفرار ، فقد فقدت كثيراً من غرائزها القديمة ومنها الهرب عند سماع الطلقات النارية ..

دنا (ميشكا) أكثر من المشهد ، ووقف أمام ثلاث جثث تصطرع العقبان عليها .. ولما وجد ألا جدوى من السلاح النارى قلب البندقية ليهوى بالدبشك على رأس طائرين منها ..

أصدر العقاب الأول صرخة ألم ، ثم وثب فى الهواء لينقض على وجه الصياد ..

* * *

١١ - حادث بسيط للغاية ..

وثبت من العربة مع السائق ، وهرعنا إلى حيث كان الصياد الروسى فى مأزق ، فانهلنا بالضربات والركلات عليه وعلى العقاب معًا ..

لحسن الحظ لم يقرر أحد العقبان أن يقطع وجبته ليهاجمنا ، وفى النهاية تكوّم العقاب الأول على الأرض وقد تهشم عنقه ..

قلت لـ (ميشكا) وأنا أساعده على النهوض :

- « كله من الثقة الزائدة بالنفس والتظاهر برباطة الجأش .. لقد رأيت رأى العين أن هذه الطيور لا تتصرف بالضبط كما ينبغى ، وبرغم هذا أصررت على استفزازها .. »

قال وهو ينهض لاهثًا :

- « إن منظر هذه الجثث لا يريحنى ، ولا بد من إلقاء نظرة .. »

والتقط بندقيته ، وفى ثبات صوبها على العقبان ، وراح يطلق النار مرارًا والصدى يهز القرية كلها ..

فى النهاية مرّ الباقون بعدما سقط خمسة منها ..

ودنونا من الجثث الآدمية الراقدة ، وسرعان ما فهمت سرّ عدم ارتياحه .. إن الجثث كلها تتشابه .. لا توجد جثة تسرّ الناظرين لو أردنا الدقة ، لكن هذه الجثث كانت تختلف ..

* * *

فى فاى فو فام !

* * *

كانت جثتان لرجلين وجثة لإمرأة ..

ورأينا مدية ملوثة بالدم الجاف فى يد أحد الرجلين ، وبلطة فى يد الآخر .. وبالمثل كان رأس الأول مهشمًا كقشرة جوز الهند ، بينما بطن الآخر .. متهتك تمامًا .. أما المرأة فكانت تحمل نوعى الجراح .. ولم يكن فى أحدهم أثر لأنياب وحوش أو مخالب .. فقط آثار مناقير تلك الجوارح التى لم تحدث تشويهًا كبيرًا ..



والتقط بندقيته ، وفى ثبات صوبها على العقبان ، وراح يطلق النار مرارًا ، والصدى يهزُّ القرية كلها ..

قصة بليغة جدًا ....

قال الصياد الروسى :

ـ « كما ترون .. هؤلاء مزق بعضهم البعض .. لم يكن للوحوش دخل فى هذا كله .. »

وقال (أندرسن) الذى استغرق كل هذا الوقت ليصل لنا :

ـ « لقد جن الناس جميعًا .. »

وقال (بودرجا) مولولاً :

ـ « (داوا) ! إنها الأرواح ! »

وقلت أنا للروسى :

ـ « مثل تابعك الكينى .. هل هذا مجرد ضغط عصبى زائد ؟ »

مط شفته السفلى مفكرًا ، ثم هز رأسه :

ـ « لا أظن .. أعتقد أن ما أصاب الوحوش بالجنون قد أصاب البشر ! »

وارتجفت إذ تذكرت الزنجى الذى قابلتـه فى الاستقبال ، والذى مزقه صديقه أو شقيقه .. كما تذكرت ثورة التابع الكينى غير المفهومة ..

قال الصياد الروسى وهو يجرع جرعة من قنينة فى جيبه .

ـ « كما ترون .. لقد تأخر التأثير قليلاً حتى يصل إلى البشر ؛ لكنه وصل فى النهاية .. بعدما اجتاز سدودًا سميكة من تقاليد التحضر وقشرة المخ التى تمنعنا من التحول إلى كلاب مسعورة .. »

ـ « والعمل ؟ »

ـ « العمل ؟ سنواصل ما بدأناه وننسى ما رأيناه .. »

قالها وأعاد القنينة إلى جيبه ، واتجه نحو العربة بخطى ثابتة واسعة .

★ ★ ★

كنا الآن نمشى محاذين نهر (لوجون) الذى تنعس مياهه فى شمس العصر .. ومن آن لآخر كنا

نتوقف لنملأ دلاء الماء من النهر ونسكبها على العجلات الساخنة ..

لم تكن هناك تماسيح لحسن الحظ ، وهذا طبيعى لأن التماسيح غادرت النهر وزحفت على القرى المجاورة .. ماكانت لتنتظر شخصًا متحمسًا مثلنا يدنو من النهر أكثر من اللازم ..

جو حارق خانق ، وتوتر بالغ ، وكل مفردات الكوابيس ..

وعلى الشاطئ جلست جوار (ميشكا) الذى كان يدخن سيجارًا غليظًا كالعادة ويذبّ الذباب المحتشد حوله ..

قال لى وهو يصفع ذبابة على قفاه :

ـ « لقد جن الذباب بدوره .. ما كان بهذه الشراسة .. »

سألته وأنا أتأمل قطعة خشب طافية على الماء :

ـ « هل تخاف الموت ؟ »

شرد بذهنه قليلاً ، ثم غمغم :

ـ « أخافه كثيرًا .. لكنى عقدت معه معاهدة سلام منذ زمن .. يخيل إلىّ أنه يحترمنى نوعًا ويعاملنى معاملة خاصة .. إنه خصم شريف .. لقد رأيت أسماك (البيرانها) ـ فى أمريكا الجنوبية ـ تلتهم كل رفاقى لكنها تركتنى أنا بالذات .. رأيت الدببة تمزق صديقين لى لكنها كفت عن الهجوم حين جاء دورى .. نجوت من حادثى سيارة بينما هلك الآخرون .. إن الموت مخيف .. قوى جدًا .. لكنه كلما التقينا يهزّ رأسه محييًا كسيد إنجليزى مهذب ويبتعد .. »

ـ « لكن المعاهدة لن تدوم للأبد .. »

ـ « عندها لن أعرف هذا .. إن الموت يجىء سريعًا جدًا فى مهنتنا هذه .. وفى الغالب لا يعرف الميت أنه مات إلا متأخرًا .. الحقيقة هى أن من يمزقه الأسد أو يفترسه النمر يكون قد مات بالصدمة العصبية من زمن ، وبالتالى لم يعد الأمر بهذه البشاعة التى تتصورها .

« إن قواعد اللعبة متكافئة عادلة .. لقد خرجت أنا لأقتل الأسد ، والأسد خرج كى يقتلنى .. أحدنا سيموت .. فلماذا التذمر ؟ ولماذا اخترت هذه الحياة أصلاً إذا كنت سأطلق صرخات الشكوى عند أول خطر يهدد حياتى ؟»

« لو ظفر الأسد بى فهذه وجبة عشائه ، ولو ظفرت بالأسد فهذه حفنة من الدولارات أنفقها فى المطاعم الفاخرة .. لا فارق بيننا إلى الحدّ الذى تظنه .. »

ثم أطفأ سيجاره ، ونهض متجهًا إلى العربة ..

قال دون أن ينظر للوراء :

ـ « هلم تعال .. إننا راحلون حالاً .. »

* * *

ومن جديد واصلنا السفر عبر (السافانا) ..

كنا نعبر الآن مساحة واسعة شاسعة بعيدة عن الأشجار .. أرض عشبية منبسطة تحرقها ألف شمس ، وإن استطال ظلنا ليرتمى خلفنا .. من بعيد رأينا قطيعًا من الأفيال يمشى .. والأفيال نادرة فى (الكاميرون) لهذا استحوذ المشهد على اهتمامى بشكل خاص ..

أصدر (ميشكا) خوارًا من أنفه ، وغمغم :

ـ « لا بأس .. لا خطر هنالك .. إنها بعيدة .. »

وواصلنا الانطلاق فى رحلتنا بضعة أمتار ثم سمعت صوت الفرملة الحادّ يدوّى .. وارتطمت رءوسنا بالتابلوه الأمامى .. أخيرًا رفعناها لنرى السبب فى هذا التوقف المفاجئ ..

كان فيل إفريقى عملاق يقف أمامنا ـ على بعد عشرين مترًا ـ وهو يصدر ذلك الصوت العميق المولول المميز للفيلة ، وهو لا يكف عن هزّ جسده الضخم لينفض عنه الغبار والذباب ، المشهد الذى ذكرنى بالكلاب بعد الاستحمام ..

همس (ميشكا) وهو يعتصر بندقيته :

ـ « لن يهاجم .. لا تقلقوا .. ما دام لم ينشر أذنيه على الجانبين فلن يهاجم .

سأله السائق همسًا :

ـ « وماذا أفعل ؟ »

ـ « تحرّك مبتعدًا عنه ببطء .. »

وحبسنا أنفاسنا بينما السائق يزحف كالثعبان محاولاً الابتعاد عن العملاق المهيب عصبى المزاج ..

فى اللحظة التالية انتفض الفيل ..

وفهمت المقصود بنشر الأذنين حين رأيته يفعلها ، ثم اندفع كالقذيفة نحونا بسرعة لا تصدق مع وزنه الهائل ..

صاح (ميشكا) :

ـ « ابتعد بأقصى سرعة ! »

ارتبك السائق فأخطأ تحريك ذراع السرعات مرتين أو ثلاثًا .. فى كل مرة يحرك العصا إلى وضع (المور) ويضغط دوّاسة البنزين فيتعالى صوت المحرك دون حركة ..

فى النهاية استطاع أن يحركها إلى وضع صحيح ، وانطلقت السيارة .. لكنه كان قد تأخر أكثر من اللازم ..

بانج !

دوّى صوت الارتطام داخل رءوسنا واصطكت أسناننا .. لقد ضربنا الفيل برأسه فى جانب السيارة ، وشعرت بأن السماء تنقلب لتصير أرضًا ، والعكس صحيح .. إننا ننقلب ! لا مزاح هناك !

الآن كنت فى وضع شاذ .. أعتقد أن السيارة كانت على جانبها الأيمن ، لأننى كنت غارقًا فى عرق إبطى (ميشكا) ، بينما حذائى يهرس وجه السائق ..

وسمعت (ميشكا) يصرخ :

ـ « غادروا السيارة ! هلم يا حمقى ! »

وانفتح باب السائق، وبعد لحظة شعرت به يختفى .. فلحقت به ..

الآن أنا واقف على جانب السيارة المقلوبة على جانبها أتساءل أين ذهب الفيل ..

هووووووه !

كان قادمًا يتبختر ، وأذناه منشورتان كالعادة ، وقد أزمع توجيه ضربة أخرى .. وثبت من هذا الارتفاع إلى الأرض العشبية ورحت أركض ، بينما دوّى الارتطام خلف ظهرى ..

بانج !

أين الآخرون ؟ سيموتون حتمًا لو لم يحذوا حذوى .. لكن أين الوقت الكافى لأهرع وأحاول تحريرهم ؟

إن الفيل يستعدّ لضربة ثالثة ، وإن نجح فى أن يعيد السيارة على عجلاتها من جديد ..

بانج !

وهذه المرة دارت العربة مرتين حول نفسها قبل أن تستقر على سقفها .. وراحت عجلاتها تدور بلا كلل ..

كنت واقفًا على بعد عشرة أمتار، وقد شلنى الذعر .. الطبيب المصرى الشاب يرى مشهدًا لا يراه إلا فى السينما .. وبالتأكيد كنت آخر من يستطيع التعامل مع موقف كهذا ..

فى النهاية بدا لى أن الفيل اكتفى بهذا الدرس .. أطلق صيحة أخيرة ثم أرخى أذنيه وابتعد راضيًا عما قام به ..

ما إن اطمأننت إلى ابتعاده حتى هرعت إلى العربة المقلوبة .. فتحت بابها الخلفى فوجدت (أندرسن) و (بودرجا) أشبه بدمى لعب بها طفل شرس ..

كان الدم ينزف من رأس الأول ، أما الثانى فلا يكف عن الولولة ..

أفظع ما فى الأمر أنهما لم يفهما قط ما الذى يحدث !

جريت لأفتح الباب الأمامى الأيمن ، وجررت الصياد الروسى من ياقة قميصه ليسقط على الأرض كجوال القطن ..

لم يصب إلا ببعض الرضوض .. إنه رجل قوى حقًا ..

فى النهاية وقفنا جميعًا نلهث ، ونتحسس أطرافنا .. كان علىّ أن أضمد رأس (أندرسن) لأوقف النزف .. لا شك فى أنه يعانى أعراض (ما بعد الارتجاج) لأنه تقيأ مرتين .. لو كنا فى مستشفى لطلبت وضعه تحت الملاحظة يومين .. لكن ماذا أفعل ونحن فى العراء ؟

* * *

فى فاى فو فام !

* * *

تأمل السائق السيارة ، وغمغم :

ـ « هل يمكننا إعادتها على عجلاتها ؟ »

تأملها الروسى بدوره ، وبصوته الغليظ قال :

ـ « لا أظن .. إننا مصابون مكدومون .. وعلى كل حال قد ثقب إطاران من إطاراتها .. هل لديك إطاران احتياطيان ؟ »

ـ « لا .. لدى واحد فقط .. »

ـ « إذن لا داعى للمجهود يا بنى .. »

ووقفنا صامتين ..

لا صوت سوى صوت لهاثنا وطنين الذباب المستمر ..

ستغرب الشمس بعد ساعة أو أكثر قليلاً ..

عندها ما مصيرنا ؟

لو كانت الظروف عادية لقلت إننا فى ورطة ، أما ونحن وسط هياج الوحوش وثورتها يمكن القول إننا منتهون .. موتى يمشون على الأقدام ..

وهنا حدث شىء غريب لم يره سواى ..

كان الروسى يأتى بحركات غير مألوفة بتقاطيع وجهه .. حركات أشبه بطفل خبيث سخيف يضايق طفلة ..

والتقت عينانا فكوّر شفتيه إلى جانب واحد ، ورسم تعبيرًا مخيفًا على وجهه كأنما يريد إفزاعى .. ثم أخرج لسانه لى ..

عندها فهمت ..

لقد جاء دوره ليجنّ ..

هذا الثور الآدمى القوى .. أملنا الوحيد فى هذه البرية .. قد قرر أن يجنّ .. المشكلة أنه أقوانا وأوسعنا حيلة وربما شراسة ..

* * *

فى الكتيب القادم أحكى لكم أشياء كثيرة .. عن (ميشكا) .. عن ثورة الوحوش .. عن (ماونت كاميرون) .. عن اللعبة الأبدية التى يلعبها الإنسان حين يحاول فى كل لحظة أن يبقى حيًا لحظة أخرى ..

* * *

[نهاية الجزء الأول]

روايات مصرية للجيب

سافاري

يوم ثارت الوحوش

إنه يوم لم تشرق له شمس .. يوم عرفنا بدايته لكننا نجهل كل شيء عن نهايته .. اليوم تبسط الوحوش سلطانها، ويبدأ حظر تجوال من نوع خاص .. اليوم تزأر السباع وتخور الثيران وتحلق النسور وتحوم الوطاويط .. فاليوم هو يوم ثارت الوحوش ..



د. أحمد خالد توفيق

مطابع سلاح التلميذ

الثمن في مصر ٢٥ وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم
أرض الجنون

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع